

47930



سلسلة رواد التنوير

شاعر النيل حافظ إبراهيم

د. عبد المنعم إبراهيم أجمي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

٢٠١٢

الإشراف العام
إيمان الروبى

رئيس مجلس الإدارة
السفير إسماعيل خيرت

إشراف فنى وتجهيز
فؤاد عبد الرحيم

الإشراف التنفيذي
د. إسماعيل عبد الفتاح

إخراج

أحمد سيد أحمد

تصميم الغلاف

شيرين الخراسى

الفهرس

المقدمة:	أ.....
الفصل الأول: الشاة والتكوين	أ.....
الفصل الثانى: شعر حافظ إبراهيم الساسى	أ.....
الفصل الثالث: حافظ إبراهيم شاعر مصر الاجتماعى	أ.....
الفصل الرابع: الفكاهة فى شعر حافظ إبراهيم	أ.....
خاتمة:	أ.....

مقدمة

يفخر التاريخ المصرى عبر عصوره بإمكانات بشرية من الإبداعات المثمرة أضافت للأدب العربى إنجازات هامة وللإنسان المصرى أفاقا لا حدود لها تحلقت به إلى اتجاهات حياتية ممتزجة بالشعور بالحياة التى تدور حوله بما فيها من مباحج ومتاعب خاصة إذا كان المبدع قد نشأ وترعرع بين أوساط المصريين البسطاء والعامه وعاش عيشتهم وأحس بإحساسهم، وعاش بين الحوارى والأزقة والتصق بأهلها ووقف على ملامح حياتهم المصرية الخالصة وما يظللها من بؤس وحرمان، وخالط الناس بجميع طبقاتهم حيث انبعث عن غمار عامة الشعب، وعانى وذاق ما يعانیه أفراده من فقر وحرمان فالتأم شقاؤه بشقاء أمتة فكانت أشعاره تعبيراً حياً عما يدور بخلد الشعب فعمل على رفع مستوى شعبه الاجتماعى وبعث وعيه الوطنى وقد انفرد حافظ بهذه الخاصية بين شعراء عصره فكان من أعلم الناس بمشاكل هذا المجتمع وعيوبه خاصة وأنه عاش بين طين مصر، وأجرى ماء النيل فى دمه كل آلام المصريين وآمالهم ومشاعرهم وسكبت سماء مصر فى روحه روح مصر الخالدة وما تشعر به ، فكان أسلوبه التهكمى فى قصائده يحمل التتكيث والتبكيث معا فأحيانا يستهجن أفعال المصريين ويلهب ظهورهم ويكشف سوءاتهم وفى نفس الوقت يحتضنهم ، ويعانقهم بقلبه وعقله ، وبمشاعره، وفى أحيان أخرى يداعبهم ويشجعهم على ولوج ركب النهضة ويبعث النخوة فى نفوسهم وكانت عباراته سهلة بالنسبة لهم ومعانيها أوضح لأنه كان يحس إحساسا قويا أنه يخاطب الشعب المصرى فى مجموعته، فعبر شعره ذو الأسلوب الكلاسيكى

الحديث عن الأحاسيس الشعبية بطريقة يمكن لرجل الشارع أن يفهما ، فكان يلقي شعره علنا أمام الناس يوضح فيه مشاكلهم الاجتماعية ويعبر عن رأيه فى أحداث الوطن مؤكدا دعمه للمطالب الوطنية ، كما ساهم حافظ بأرائه فى الصحافة المصرية يتندر على من حوله من الناس الذين يتقبلون كل ما يقوله حافظ قبولا طيبا لأن شخصيته البسيطة التى تأثرت باليتم المبكر كانت هى التى تحرك لسانه وتقود أفعاله، فراح فى مجموع شعره يبكى حظه وحظ أمته ، وكانت آراؤه فى روحها وجوهرها تعبيراً عما يجيش فى صدور أبناء وطنه ، لذلك كان أول شاعر مصرى يعالج مشاكل وطنه بأسلوب شعبي سهل على الناس استيعاب المفاهيم الوطنية الذى كان إدراكها قاصرا على الصفاة ، وعاش يتأمل أوضاع وطنه ويعانى مشاكله فترجم بشعره عما يجول بخاطر شعبه ، فطالما غذى الناس بشعره وهيجهم بأفكاره، وأضحكهم وأبكاهم مما أقلق بال رجال السياسة، ونازله خصومه من الشعراء والأدباء فنال منهم أكثر مما نالوا منه، وكانت دعوتـه ذات تأثير قوى فى نفوس مواطنيه لأنها نابعة من شعور عميق بما يعانىـه الوطن من متاعب وآلام ورغبة فى العودة إلى الإصلاح والنهوض بالمجتمع.

إن حياة حافظ ابراهيم تحتل عصرا كاملا من عصور حياة مصر والمصريين فقد نشأ فى عصر اسماعيل ذلك العصر الذى ازداد فيه التدخل الأجنبى بعد الأزمة المالية التى نتجت عن القروض التى عقدها والتى أدت إلى المراقبة الثنائية لإنجلترا وفرنسا على شئون مصر المالية ، وأن يكون لكل من الدولتين وزير فى الوزارة المصرية مما كان له أثره فى نمو الحركة القومية ، وارتفاع صوت المصريين بالإصلاح، وأن تكون مصر

للمصريين لا للأتراك ولا للأوروبيين وساعد على ذلك ظهور الصحف الوطنية ، ولم تلبث الظروف أن أطاحت بإسماعيل عن عرشه فخلفه ابنه توفيق الذى ازدادت الأمور فى عهده سوءا، فانفجرت الثورة العربية التى كانت صدى لأمانى المصريين وتطلعاتهم، إلا أن مثل هذه الحركة لم تكن لترضى عنها الدولة الاستعمارية لذلك سعت لإحباطها وانتهى الأمر بالاحتلال الانجليزى لمصر فى عام ١٨٨٢ ، ومنذ ذلك التاريخ لم يكف المصريون عن مقاومة الاحتلال، فقامت الزعامات المصرية وعلى رأسها مصطفى كامل ومحمد فريد بالدعوة إلى الجلاء وخروج المحتلين ، وعندما قامت الحرب العالمية الأولى أعلنت انجلترا حمايتها على مصر وقامت بعزل الخديوى عباس الثانى ولما انتهت الحرب، وأعلنت مبادئ الرئيس الأمريكى ولسن الأربعة عشر التى تتضمن حق تقرير مصير الشعوب توقع المصريون خيرا وطالبوا بالاستقلال ، ولما يسوا من الاستجابة لمطلبهم قامت ثورة ١٩١٩ التى أظهرت إصرار المصريين على حقهم فى الحرية والاستقلال ، وأبرزت الوحدة بين عنصرى الأمة فى جبهة كفاح واحدة، وانتهت باعلان استقلال البلاد المنقوص بمقتضى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، ثم صدور دستور ١٩٢٣ وبداية الحياة البرلمانية فى مصر، وتشكيل وزارة الشعب برئاسة سعد زغلول وما أعقبها من وقوع مقتل السردار واستقالة سعد ووفاته فى عام ١٩٢٧ وإلغاء صدقى لدستور ١٩٢٣ وما تبعه من أحداث وخلال ذلك استمر حافظ ابراهيم منفعلا مع أحداث وطنه حتى آخر لحظة فى حياته.

وتبعاً لذلك فقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى أربعة فصول تناولت نشأة وتكوين حافظ وشعره السياسى والاجتماعى والفكاهى بالإضافة إلى المقدمة

والخاتمة وقد عنون الفصل الأول، حافظ ابراهيم بين النشأة والتكوين ،
وشمل حياة حافظ وتبرمه بكل قيود الحرية، واختلاط نفسه بنفس الشعب
المصرى وامتزاج روحه بروحه حتى عبر عن مطالبه بكل صدق
وموضوعية.

وعنون الفصل الثانى " شعر حافظ السياسى"، وتم فيه تناول قصائده
الوطنية التى كانت تنادى بالنهضة وتبعث على النخوة بكل ما تجيش به
نفسه من المعانى بعد أن أنتهت الثورة العراقية بنكبة الاحتلال وتطلع
المصريون إلى الحرية والدستور.

وعنوان الفصل الثالث "حافظ ابراهيم شاعر مصر الاجتماعى" وفيه
تعرض حافظ لحياة مصر والمصريين بشكل مباشر، واقتحم خفاياهم،
والهيب بين ثنايا شعره ظهورهم وكشف عيوبهم واستهجن أفعالهم بأسلوب
واضح جعل البعض يطلق عليه شاعر مصر الاجتماعى بلا منازع.

أما الفصل الرابع فقد كان بعنوان "الفكاهة فى شعر حافظ ابراهيم"،
وفيه برزت نواته ودعاباته بشكل يجمع بين التكتيك والتبكيك ومن هذه
الفصول وهذه الدراسة يتبين لنا أن حافظ أوقف حياته على التغنى
بأحاسيس قومه وأفكارهم وآلامهم وآمالهم ، وأنه كان صادق الشعر فى
مصريته ، وفى كل ما كتبه من أشعار، وكل ما نأمله أن نكون قد أعطينا
حقه، وأن يتعرف أبناء الجيل الجديد على تضحياته.

والله ولى التوفيق

الفصل الأول النشأة والتكوين

ولد حافظ ابراهيم فى دهنية راسية على شاطئ النيل قرب قناطر ديروط فى صعيد مصر كان يسكنها والده ابراهيم افندى فهمى أحد المهندسين المشرفين على هذه القناطر مع زوجته الست هانم كريمة احمد البورصة لى بك، وكان القدر قد شاء ألا يولد شاعر النيل إلا على صفحة النيل ، وتاريخ ميلاد حافظ يكتنفه الغموض، فلم يعرفه أحد بالضبط كما أقر بذلك حافظ نفسه أمام القومسيون الطبى عندما أريد تعيينه فى دار الكتب وإن كان من المؤكد أن ميلاده حدث فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ولم يعيش والد حافظ طويلا بعد ولادته ولم يرزق ولدا غيره إذ توفى وحافظ فى الرابعة من عمره، فقد حنان الأبوة وحرمة نداء الأسرة المستقرة، وترعرع بين أحضان الفاقة واليتم والبؤس والقلق فانتقلت به والدته إلى القاهرة ، ونزلت عند أخيها محمد نيازى الذى قام على تربيته وتولى أمره، ولما أهلت السن القانونية حافظ لدخول المدرسة ، وتحصيل العلم تلقى تعليمه الأولى فى عدد من المدارس الابتدائية فدخل المدرسة الخيرية بالقلعة وكانت مكتبا تعلم فيه القراءة والكتابة وشيئا من العربية والحساب ثم دخل مدرسة القربية الابتدائية وتحول إلى مدرسة المبتديان، ولما أنتهى من تعليمه الابتدائى التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية بدرب الجماميز، ولكن لم يطل مقامه فيها حيث انتقل مع خاله إلى طنطا حيث كان يعمل مهندسا للتنظيم هناك، ولم تكن قدرته المالية تسمح له ان يستبقى

حافظ بالقاهرة لإتمام تعليمه بها، مما أدى إلى توقف حافظ عن متابعة التعليم، وكان عمره وقتذاك ستة عشر عاما مما طبع في نفسه الحزن، وجعله يمتلك نفسا بائسا، وقلبا كسيراً وروحاً لا يقبل عليها السرور فعاش عيش الإهمال والملل وضاق بالحياة التي حرمتها من التعليم ، وأصبح لا يكثر بها كما ازداد اختلاطه بالطبقات الشعبية وأحس بما تعانيه من متاعب وجهد خلال بحثها عن لقمة العيش، وخلال ذلك وجد في نفسه ميلا إلى الأدب وكتابة الشعر متأثرا بالشاعر محمود سامي البارودي حيث كانت الطبيعة قد حبتة بالموهبة الروحانية فأخذ ينهل من دواوين الشعر ، ويربى نفسه بالمطالعة وشجعه على ذلك الشيخ عبد الوهاب النجار الطالب بالمعهد الأحمدي بطنطا الذي لم يلبث أن كان مغرما بأدبه وما يشتمل عليه من ظرف ولطف وسرعة خاطر، والذي كان حافظ يبرز فيه بواعث من طبعه وروحه ولا يستلهم منه سوى ذكرياته المليئة بالألم والحرمان. واستمر حافظ في تغذية ملكاته ومواهبه فتقّف نفسه ثقافة حرة واسعة النطاق، وغير مقيدة بمنهج دراسي أو غيره ، فلا عمل له ولا مدرسة إلا مدرسته التي أنشأها بنفسه لنفسه، وإلى جانب ذلك فقد رسبت في نفس حافظ الحياة الشعبية في رحاب السيد البدوي بين الدراويش والأدعياء مما جعل بعض أشعاره تختلط بتعبيرات جارية على أفواه العامة. وظل حافظ على ذلك الحال بلا عمل يتكسب منه حيث لم يكن قد حصل على شهادة تضمن له عملا حكوميا، حيث اتخذ لنفسه من قراءة الأدب عملا، ومن شعره صديقا ، ولما كانت مهنة الأدب في ذلك الوقت لم تكن تحقق كسبا يتعيش منه، فلم يلبث أن ضاق به خاله ودب الخلاف بينهما فقرر حافظ أن

يهجر بيت خاله بعد أن كتب له بيتين من الشعر يدلان على ما فى نفسه
من ألم عميق وهما:

ثقلت عليك مؤونتى أنى أراها واهية
فأفرح فانى ذاهب متوجه فى داهية

إن هذا الشعر البسيط يؤكد الموقف الأليم الذى تعرض له حافظ حيث
أصبح بلا عمل ولا مأوى ، وكان أحيانا يتضور جوعا فلا يجد ما يأكله
فيتمنى أن يموت، وكثيرا ما كان يشكو الدهر وأحداث الزمن ويندب سوء
حظه وما كان فى نفسه من حزن عميق وألم كامن ومن ذلك قوله:

عجبت لعمرى كيف مد فطالا وما أثرت فيه الهموم زوالا
وللموت مالى قد أراه مباعدا وجل مرادى ان أوسد حالا
فللموت خير من حياة أرى بها ذليلا وكنت السيد المفضالا

وخلال ذلك بدأ حافظ يبحث عن عمل ليقتات منه، ولما كانت مهنة
المحاماة فى ذلك الوقت لا تحتاج إلى شهادة بل إلى شخص فصيح اللسان
وهذا ما يتوفر فى حافظ فقد عمل حافظ مساعدا لأحد المحامين فى طنطا
وكان يسافر إلى المحاكم الجزئية القريبة من طنطا، ويرافع فى القضايا
ويكسبها غير أن طبيعته القلقة لم تكن تؤهله للصبر فى تمحيص القضايا
وكتابة المذكرات وإعدادها، فترك هذه المهنة، وسافر إلى القاهرة حيث
عثر على بارقة أمل جديدة، بعد أن أعلنت الكلية الحربية عن قبول دفعة
جديدة بها، وكانت فى ذلك الوقت تقبل حاملى الابتدائية فالتحق بها وكان لا
يزال فى فتوة الصبا ومستهل الشباب حتى تخرج فيها عام ١٨٩١ وعين
برتبة الملازم ثان وبقي فى هذه الوظيفة بالقاهرة ثلاث سنوات، ولما كانت

وزارة الحربية وقتذاك تمد الداخلية بضباطها حيث لم تكن كلية الشرطة قد أنشئت بعد، فقد أعارت حافظ للداخلية في وظيفة ملاحظ ببني سويف، ونظرا لأن هذه الوظيفة لا تلائم طبيعه ، فقد ضاق بها ، وبما يتعرض له رجال الأمن في الأقاليم، مما دفعه إلى تركها والعودة إلى الجيش ومما يذكره حافظ عن سبب ضيقه من هذه الوظيفة ونفوره منها قوله كنت نائما في بيتي وإذا برسالة من شيخ البلد في احدى القرى تقول "وقعت الحائط وزهقت الأرواح " فأسرع بالانتقال إلى القرية حيث وصل إلى مكان الحادث فوجد أن جدارا قد سقط وقتلت تحته ثلاث دجاجات فسأل حافظ شيخ البلد أين الأرواح التي ازهقت ؟ فرد عليه متعلثا والله يا سيدى إننى تشاحنت مع نسائى وحلفت بالطلاق لأحضرن البوليس، وأخذت أتلمس الوسيلة لذلك حتى علمت أن جدارا قد وقع وماتت تحته ثلاث دجاجات فأرسلت هذه الرسالة ليحضر إلينا البوليس فأبر بالقسم العظيم ، فقال له حافظ والله لتكونن روحك إحدى هذه الأرواح التي زهقت كما تزعم وانها على شيخ البلد ضربا حتى كان يموت بين يديه. ترك حافظ وظيفته وعاد إلى الجيش وخلال ذلك ألحق بحملة كتشنر المرسله إلى السودان عام ١٨٩٦، وقضى بعض الوقت فى سواكن والخرطوم، ومن هناك أرسل إلى أصدقائه بمصر شعرا قويا رصينا ولما كانت إقامته بالسودان موحشة ومؤلمة بالنسبة له خاصة وأنه لم يطق الجو هناك فقد كتب إلى أحد أصدقائه يشكو الوحدة ويتشوق إلى مصر بعد أن عرفت نفسه ذل الكسير المهيب الجناح وبعد أن تحطمت آمال أمته فى الثورة العربية ، فتحدث عن السودان حديث الساخط الباكي بقوله:

رميت بها على هذا التراب وما حملتها إلا شقاء
وما حملتها إلا شقاء جنيت عليك يا نفسى وقبلى
وما حملتها إلا شقاء جنيت عليك يا نفسى وقبلى
فلولا أنهم وأدوا بيانى سعت وكم سعى قبلى أديب
وما أعذرت حتى كان نعلى وحتى صيرتتى الشمس عبدا
وحتى صيرتتى الشمس عبدا وحتى قلم الإملاق ظفرى
وحتى قلم الإملاق ظفرى متى أنا بالغ يا (مصر) أرضا
رايت ابن البخار على رباها كان بجوفه أحشاء صلب
أبرق الأرض أم برق السحاب إذا ملاح ساعلنا الدياجى

وزاد حاله سوءا فى السودان بعد كراهية كتشنر له، وبعد أن رأى سوء
معاملة الإنجليز للمصريين، فحاول أن يعبر عن ثورته إزاء هذا الظلم بأن
شارك فى جمعية سرية مع بعض زملائه من الضباط ولما انكشف أمره،
بعد أن وشى به أحد الوشاه إلى الإنجليز بأنه يحرض على الثورة ضدهم،
تمت محاكمته أمام مجلس عسكري وأحيل إلى الاستيداع وعاد إلى مصر
وهو فى حالة نفسية صعبة خاصة وأن نفسه الشاعرة لا تقبل الظلم فأصبح
عاطلا ، مما أثر فى نفسه تأثيرا بالغا، وضاعت الدنيا فى وجهه فأخذ يبيث
شكواه فى كل مكان، يلعن البؤس والشقاء وعدم استقرار الأحوال كما أخذ

يتلمس لنفسه طريقا فى الحياة يعيش فيه، وظل يشكو أيامه ويضحك من شقائه، ويستمر فى الناس، ويتندر عليهم حتى صار نديما لكل مجلس وخلال ذلك تقرب من رجالات الحركة الوطنية وبعض أفراد الطبقة المثقفة أمثال الشيخ محمد عبده وسعد زغول وقاسم أمين ومصطفى كامل ومحمد فريد وعلى يوسف وحفنى ناصف وغيرهم ، وكانت مجالسهم تعد من أرقى المجالس التى تطرح فيها المسائل السياسية والاجتماعية والعلمية وتعرض فيها الحلول المختلفة فقد أستطاع حافظ أن يكون صداقات معهم بعد أن أعجبهم فيه الصراحة النادرة ، والسخرية اللاذعة وأحاديثه التى ترتاح إليها النفس وبدأ يتعرف منهم على الآراء السياسية، وأن يكون له فيها رأى خاص أفرغه بعد ذلك فى أشعاره، وخلال ذلك توقت صلته بالشيخ محمد عبده خاصة بعد أن قدم له قصيدة هناه فيها عندما أسند إليه منصب الإفتاء فى سنة ١٨٩٩ نذكر منها:

لئن ظفر الإفتاء منك بفاضل

لقد ظفر الإسلام منك بأفضل

فما حل عقد المشكلات بحكمة

سواك ولا أربى على كل حول

ثم صحب الشيخ محمد عبده بعد ذلك فى كثير من تنقلاته فى الريف للدعوة إلى فعل الخير أو للترويج لحركة الإصلاح واشتدت بينهما أوامر المودة حتى غبطه الكثيرون على ذلك وحول هذا الموضوع يقول حافظ " لقد كنت ألصق الناس بالإمام أغشى داره ، وأرد نهاره، والتقط ثماره" وخلال ذلك نظم حافظ مجموعة من أجود قصائده وأكثرها صدقا

وإخلاصاً، وتألقت شاعريته وعرف له معاصروه فضله . وفجأة ابتسمت الحياة لحافظ حيث تم تعيينه في عام ١٩١١ رئيساً للقسم الأدبي بدار الكتب الملكية بعد أن توسط له في ذلك "أحمد حشمت باشا" وزير المعارف وحول ذلك يذكر الدكتور طه حسين في كتابه حافظ وشوقي " إنه كان يقضى صباحه في دار الكتب يعبث بالموظفين ويتندر عليهم ، أو على باب الدار يدخلن سيجاره الضخم ، أو في قهوة دار الكتب يدخلن الشيشة ، فإذا كان المساء أنفق وقته بين أصدقائه في الأندية الخاصة والعامة.

وفي هذه المجالس كان حافظ يجلس مع أصدقائه من السياسيين والمفكرين يتحدث في السياسة وفي أحوال البلاد وطريقة إصلاحها مازجا ذلك بالنكات والنوادر التي تعبر عن شكواه من البؤس والدنيا والقدر ، وقد جمع هذه الآراء التي عبر عنها بأجلى بيان في كتابة "اليالى سطيح" وهو كتاب كتبه نثراً وبه بعض فقرات من الشعر وجعل منه حواراً بين نفسه وغيره من المثقفين وبين الفيلسوف الناسك سطيح الذين كانوا يسمعون كلامه دون أن يترأى للناظرين وقد تناول حوارهم شئون مصر ونقدها نقداً مرّاً، فهو مثلاً يسخر من مشايخ الطرق الصوفية ويصفهم بأنهم أسعد الناس في مصر لأن الناس تسرف في طاعتهم وتبجيلهم وهم أحياء، ويشيدون لهم القبور ويلتمسون منهم البركة بعد مماتهم. وينتقد حافظ في هذا الكتاب مبالغة الناس في خدمة الحكومة، ويدعو إلى إصلاح التعليم وإنشاء جامعة لتتوير المصريين وتعريفهم بحقوقهم ، كما ينتقد الصحف العميلة للاحتلال ونظم الاستبداد ويدعو إلى الحفاظ على اللغة العربية وبعث الحياة فيها . وإلى جانب ذلك فقد اشترك بقلمه في الأحداث التي

هزت بلاده ، وكان من خير شعره ما قاله فى حادث دنشواى وفى رثاء مصطفى كامل وسعد زغلول ، وإلى جانب ذلك فقد كان دائما يصرخ فى وجوه المصريين طالبا منهم التمسك بلغتهم العربية وبوطنيتهم المصرية. ولما كان حافظ ملما باللغة الفرنسية، فقد مكته ذلك من الاطلاع على شئ من آدابها، وقد ترجم " البؤساء" لفكتور هوجو" وترجم بعض مقالات لجان جاك روسو واشترك مع الشاعر خليل مطران فى ترجمة كتاب "موجز الاقتصاد" وكان يقرأ بعض ما يترجم من الأدب الانجليزى خاصة ما كتبه شكسبير ومع كل ذلك فقد كانت اللغة العربية هى مصدر ثقافته ومنبع تجاربه الواسعة.

حقيقة لقد كان حافظ من المفتونين بأدب اللغة العامية وكان يحفظ الكثير من الأزجال والمواويل الشعبية غير أن اتصاله بالشيخ محمد عبده وحضوره بعض دروسه التى يلقيها على تلاميذه فى منزله دفعه إلى أن يتحول إلى مناصرة الفصحى، وأنشد قصيدته المشهورة متحدثا بلسان اللغة العربية:

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن

فهل ساءلوا الغواص عن صدقاتى

كما أن حبه لمصر فاق كل حب ، ذلك الحب الذى جسده فى قصيدته المعروفة " مصر تتحدث عن نفسها عام ١٩٢١" وشدت بها أم كلثوم مجسدة شموخ مصر وكبرياؤها :

كم بغت دولة على وجارت

ثم زالت وتلك عقبى التعدى

وظل حافظ يعمل فى دار الكتب حتى خرج إلى المعاش فى عام ١٩٣٢
يكتب أشعاره الوطنية والاجتماعية بشكل اهتزت له القلوب وتحركت
الأفئدة حتى لُقّب بشاعر الشعب الثائر الذى ارتبطت عبقريته الشعرية مع
بيئته وأحداث حياته حتى وافته المنية فى ٢١ يوليو ١٩٣٢ أى بعد خمسة
اشهر من خروجه إلى المعاش، وشيعت جنازته وسارت مصر وراءه بعد
أن لبست ثوب الحداد، وتحطم فى نفسها أمال كبار كانت ترتجىها من فيض
شعره.

الفصل الثانى

شعر حافظ إبراهيم السياسى

شهد عصر حافظ ابراهيم العديد من كبار الشعراء أمثال البارودى وشوقى واسماعيل صبرى وغيرهم ومع ذلك فان ميزة حافظ الكبرى أن شعره تبلورت فيه آمال أمته، وتألفت الروح الوطنية فى كلماته فكانت الأمة تشكو من الاحتلال ومن فوضى الأخلاق وكان زعماء الوطنية والإصلاح الاجتماعى يلهبون حماسه، وكان حافظ يجمع كل ذلك فى نفسه وكان فى شعره يقف مساندا للصحافة الوطنية وقادة الرأى السياسيين والاجتماعيين يجلس فى مجالسهم ويغذى عواطفه من عواطفهم ثم يخرج ذلك كله شعرا قويا ملتهبا يفعل فى النفوس ما لا تفعله الخطب والمقالات، فكان حافظ شاعر الوطنية وشاعر الشعب وشاعر السياسة والاجتماع ولم يجاريه أحد فى ذلك من شعراء عصره خاصة وأن حبه للوطن ملك عليه شغاف قلبه وقد عبر عن ذلك بقوله:

متى أرى النيل لا تحلو موارده لغير مرتهب لله مرتقب
فقد غدت مصر فى حال إذا ذكرت جاءت جفونى لها باللؤلؤ الرطب
كانى عند ذكرى ما ألم بها قرم تردد بين الموت والهرب
لذلك فإنه كثيرا ما يتضمن شعر حافظ السياسى شعرا اجتماعيا لما كان من تداخل السياسة بالمجتمع، إذ كثيرا ما تكون المشكلة السياسية متفرعة من مشكلة اجتماعية وبالعكس. لذلك فإننا نجد فى شعر حافظ السياسى شعرا اجتماعيا، وفى اجتماعياته شعرا سياسيا.

وباستعراض شعر حافظ السياسى نقف على ألوان مختلفة من القصائد، ولعل أهمها ما يتعرض فيه للاحتلال وموقف الإنجليز من مصر والسودان، فمصر بلد محتل، يسيطر المعتمد البريطانى على كافة أموره، كما سيطرت انجلترا على السودان ومقدراته.

وحافظ كشاعر عاشق لمصر ينطق بلسانها وعواطفها، ويتجاوب مع أحاسيسها، تتدفق هذه الأحاسيس الوطنية فى قلبه فينتج عنها شعرا. لقد عشق حافظ مصر عشقا ملك عليه عاطفته ووجدانه حتى أن وطنياته وسياساته ظلت بمثابة الدعامة التى تستند إليها قدراته باعتباره شاعرا مجاهدا ومدافعا عن وطنه.

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى فى حب مصر كثيرة العشاق
انى لأحمل فى هواك صبابة يا مصر قد خرجت عن الأطواق
لهفى عليك متى أراك طليقة يحمى كريم حماك شعب راق
ولقد ساقه هذا الحب إلى أن يجعل من نفسه شاعر أمته الوطنى
والمؤثر البالغ الأثر فى إلهاب شعورها وإذكاء حماسها. وأحد عوامل
تكوين الحركة الوطنية المصرية حيث اندمج باحساسها وأخرج شعره
المعبر عن هذه المعانى كلها فيتغزل بمصر ويتغنى بها فيقول:

وما أنا والغرام وشاب رأسى وغال شبابى الخطب الجسام
لعمرك ما أرقى لغير مصر وما لى دونها أمل يرام
ذكرت جلالها أيام كانت تصول بها الفراعنة العظام
وأيام الرجال بها رجال وأيام الزمان لها غلام
فأفلق مضجعى ما بات فيها وباتت مصر فيه فهل ألام؟

ولم يشأ حافظ أن يكون شعره فى وطنه طبلا أجوف، وإنما اتخذ ما يحدث من أحداث فى وطنه أساسا لدعوته فيختار منه موضوعا لشعره. لقد بدأ حافظ هجومه على الإنجليز منذ بدايات حياته الأولى أثناء عمله ضابطا فى السودان بعد أن عرف سوء نيتهم ، وأعرب عن اليأس فى جلثهم عن وادى النيل فقال:

أرى مصر والسودان والهند واحدا

بها (اللورد) و (الفيكنت) يستبقان

وأكبر ظنى أن يوم جلثهم

ويوم نشور الخلق مقترنان

وهذه القصيدة تعبر بوضوح عن فهم حافظ لمشكلة الاحتلال فى مصر. لقد ذهب حافظ إلى السودان أثناء حملة كتشنر ثم طرد من الجيش، بعد اشتراكه فى مؤامرة ضد الإنجليز فجاء به الإنجليز إلى مصر وطلبوا محاكمته وإنزال العقاب به، وصدر ضده حكم الإعدام ثم خفف الحكم بعزله ثم أحيل إلى الاستيداع.

وخلال ذلك كانت فى نفسه شكوى دائمة من الاحتلال وكان شعره سجلا للأحداث، يسجلها بدماء قلبه وأجزاء من روحه ويصوغ فيها أدبا يستحث به النفوس ويدفع إلى النهضة ، وهذه القصيدة تعبر عن شكوى مصر والمصريين من الاحتلال:

لقد كان فىنا الظلم فوضى فهذبت حواشيه حتى بات ظلما منظما
تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى وان اصبح المصرى حرا متعما
أعد عهد (اسماعيل) جلدا وسخرة فإن رأيت المن أنكى والما

عملتم على عز الجماد وذلنا فأغليتم طينا وأرخصتم دما
إذا أخصبت أرض وأجدب أهلها فلا أطلعت نبينا ولا جادها السما
نهش إلى الدينار حتى إذا مشى به ربه للسوق ألفاه درهما
فلا تحسبوا في وفرة المال - لم تفد متاعا ولم تعصم من الفقر - مغنما
فإن كثير المال - والخفض وارف قليل إذا حل الغلاء وخيما

وإلى جانب ذلك نجده يشبع شعبه لوما وتقريعا جارحا وينفت في لومه
وتقريعه ثورته المكبوتة ضد الإنجليز، فيقول:
أمة قد فت في ساعدها

بغضها الأهل وحب الغربا

وفي قصيدة أخرى يقول:

وكم ذا بمصر من المضحكات كما قال فيها أبو الطيب
أمور تمر وعيش يمر ونحن من اللهو في ملعب
وشعب يفر من الصالحات فرار السليم من الأجر
ثم هو ينتهز كل فرصة ليودعها شعره الوطنى فهو يشبه الليل وطوله
بعهد الاحتلال، البغيض فيقول:

وليل كمطل القوم كابدت طوله وأيقنت أنى لا محالة صاحبه
وتتجمع الثورة على ظلم الإنجليز في نفس حافظ فيسير فى ركاب
مصطفى كامل ويتقدم بقصائده إلى صحيفة اللواء فتتشرها وسط الإعجاب
والحماس وحافظ بذلك ينتهز الأحداث ويتخذ منها مادة لهجومه ودفاعه .

وتقع حادثة "دنشواى" فيشن الغارة على الإنجليز فيلهب الشعور ، ويذكرى
الحماس ويستثير الدموع:

أيهما القائمون بالأمر فينا	هل نسيتم ولاعنا والوداد
خفضوا جيشكم وناموا هنيئاً	وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا اعوزتكم ذات طوق	بين تلك الربا فصيدوا العبادا
إنما نحن والحماس سواء	لم تغادر أطواقنا الأجيادا
لا تظنوا بنا العقوق ولكن	أرشدونا إذا ضللنا الرشادا
لا تقيدوا من أمة بقتيل	صادت الشمس نفسه حين صادنا

وقال يصف الحادثة وفضائع المحاكمة والتنفيذ فيقول:
جاء جهالنا بأمر وجئتم
ضعف ضعفيه قسوة واشتدادا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو
أقصاصا أردتم أم كيادا ؟
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو
أنفوسا أصيبتم أم جمادا؟
ليت شعري أنك (محكمة التفتيش)
عادت أم عهد نيرون عادا؟
كيف يحلو من القوى التشفى
من ضعيف ألقى إليه القيادا

ويتجلى في هذه القصيدة عنف السخرية المرة والألم المكبوت فيهاجم
المدعى العمومى والإنجليز ، وقال مخاطبا المدعى العمومى فى القضية:
أيها المدعى العمومى مهلا
بعض هذا فقد بلغت المرادا
قد ضمننا لك القضاء بمصر
وضمننا لنجلك الإسعادا
فإذا ما جلست للحكم فاذا
عهد (مصر) فقد شفيت الفؤادا

ولما كان بطش الإنجليز ضد كل الأحرار قائما فقد كان يستعمل أسلوب
الرمزية فى كتابته فهو يلعن الاستعمار الإنجليزى فى صورة الاستعمار
الإيطالى لطرابلس ويحمله النكبات التى تحيق بمصر أو بالشرق. وهو فى
قصيدة دنشواى لا يهاجم الإنجليز والمدعى العام فحسب بل ينتقد
المصريين رغبة منه فى إنكفاء نفوسهم ضد الاحتلال فيقرع لأمة تقرعها
جراحا مؤلما لاستسلامها للأجانب فيقول:

لاجرى النيل فى نواحيك يا (مص — ر) ولا جادك الحيا حيث جادا
أنت أنبت ذلك النبت يا (مص — ر) فأضحى عليك شوكا قتادا
أنت أنبت ناعقا قام بالأمر — (س) فأدمى القلوب والأكبادا
أية يا مدره القضاء ويا من ساد فى غفلة الزمان وشادا
أنت جلدنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا

وهذه القصيدة تعد من أروع أشعار حافظ ، وفيها تصوير لتلك الحادثة
الفظيعة التى أظهرت مدى ظلم الإنجليز ومبلغ هوان المصرى فى نظر
الاحتلال.

لقد فهم حافظ سياسة الانجليز الظالمة، فيعرض لحادثة دنشواى مرة
أخرى فيقول:

جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا
شنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا بلظى سياط الجالدين ورحبوا
يتحاسدون على الممات وكأسه بين الشفاه وطعمه لا يعذب
طاحوا بأربعة فأردوا خامسا هو خير ما يرجو العميد ويطلب

ثم يلين حافظ في كلامه متوددا راجيا بقوله:

فاجعل شعارك رحمة ومودة إن القلوب مع المودة تكسب
وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم هى أمة تلهو وشعب يلعب
واستيق غفلتها ونم عنها تتم فالناس أمثال الحوادث قلب
لقد كان حافظ سريع الاستجابة لأحداث عصره يسجل كل ما يجرى فيه
من حوادث جسام، من الاحتلال، فكتب قصيدة يعبر فيها عن الشكوى من
الاحتلال البغيض فيقول:

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت حواشيه حتى بات ظلما منظما
تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى وان اصبح المصرى حرا منعما
ويستمر حافظ في تجسيم الشكوى قائلا :

إذا أخصبت أرض وأجذب أهلها فلا أطلعت نبتا ولا جادها السما
نهش إلى الدينار حتى إذا مشى به ربه للسوق ألفاه درهما
ويختم شكواه بالتندر والسخرية والتهكم على المحتلين فيقول:
فلا تحسبوا فى وفرة المال لم تفد متاعا ولم تعصم من الفقر مغنما
فإن كثير المال والخفض وارف قليل إذا حل الغلاء وخيما

وبعد أن تم عزل المعتمد البريطاني كرومر وخروجه من مصر نرى
حافظ يكتب قصيدة يلومه على سياسته وسياسة بلاده متعرضا لما أحدثته
سياسة الإنجليز فى دنشواى:

ولولا أسى فى (دنشواى) ولوعة وفاجعة أدمت قلوبا وأكبدا
ورميك شعبا بالتعصب غافلا وتصويرك الشرقى غرا مجردا

لذنبنا أسى يوم الوداع لأننا	نرى فيك ذاك المصلح المتوددا
يناديك قد أزريت بالعلم والحجا	ولم تبق للتعليم (بالورد) معهدا
وأنك أخصبت البلاد تعمدا	وأجديت في مصر العقول تعمدا
قضيت على أم اللغات، وإنه	قضاء علينا أو سبيل إلى الردى
وواقيت والقطران في ظل راية	فما زلت بالسودان حتى تمردا
حجبت ضياء الصحف عن ظلماته	ولم تستقل حتى حجبت المؤيدا
وأودعت تقرير الوداع معغامزا	رأينا جفاء الطبع فيها مجسدا
غمزت بها دين النبي ، وإننا	لنغضب إن أغضبت في القبر أحمدا
وحاولت إعطاء الغريب مكانة	تجر علينا الويل والذل سرمدا
ألم يكفنا إنا سلينا ضياعنا	على حين لم نبلغ من الفطنة المدى
وزاحمنا في العيش كل ممارس	خيبر وكنا جاهلين ورقدا
وما الشركات السود في كل بلدة	سوى شرك يلقي به من تصيدا

ويمضى كرومر ويأتي معتمد جديد هو الدون جورست وينتهز حافظ
الفرصة ليواجه المعتمد الجديد بالحقيقة والشكوى من المستشار الإنجليزي
دنلوب بالمعارف، وأخذ يعدد المطالب الوطنية والاجتماعية ويعبر عن
الشكوى من الاحتلال بقوله

أذيقونا الرجاء فقد ظمئنا	بعهد المصلحين إلى الورود
فما أنا واقف برسوم دار	أسائلها ولا كلف برود
ولا مستنزل هبة بمدح	ولا مستنجز حر الوعود
ولكنى وقففت أنوح نوحا	على قومي وأهتف بالنشيد
وأدفع عنهم بشبا يراع	يصول بكل قافية شرود

وهو إذ يعرض هذه المطالب يغمز السياسة الإنجليزية القديمة ونقائصها
ويدعو إلى تمكين المصريين من إدارة شئون بلادهم .

أرى أحداًكم ملكوا علينا بمصر موارد العيش الرغيد
وقد ضقنا بهم وأبيك ذرعاً وضاق بحملهم ذرع البريد
أكل موظف منك قدير على التشريع في ظل العميد
فضع حداً لهم وانظر إلينا إذا انصفنا نظر الودود
وهو في هذه القصيدة عنيف منطلق تعود به الذاكرة إلى حادثة دنشواي
وكيف كانت مبعث اليقظة والحياة للحركة الوطنية فيتعرض لكرومر وما
أحدثته حادثة دنشواي من زيادة الوعي القومي لدى المصريين فيقول:
رمانا صاحب التقرير ظلما بكفران العوارف والكنود
قتيل الشمس أورثنا حياة وأيقظ هاجع القوم الرقود
فليت " كرومر " قد دام فينا يطوق بالسلاسل كل جيد
ويتحف مصر أنا بعد أن بمجلود ومقتول شهيد

ثم ينطلق مدويا يتمنى البعث المصري الجديد بقوله:

لننزع هذه الأكفان عنا ونبعث في العوالم من جديد
ويختم قصيدته لافتاً نظر المعتمد البريطاني جورست إلى أن المصريين
قد سئموا سياسة كرومر، وهم يرجون أن يكون عهده خيراً من عهد سلفه:
أجنبت تحوطنا وترد عنا وترفعنا إلى أوج الصعود
أم " اللورد " الذي انحنى علينا أتى في ثوب معتمد جديد؟

وبعد أن فرض الإنجليز الرقابة على المطبوعات وأغلقوا الصحف
وملئت السجون بالأحرار ، لم يخفت صوت حافظ وانطلق يندد بهذا
الإرهاب فيقول:

إن البلية أن تباع وتشتري "مصر" وما فيها وألا تنطقا
كانت تواسينا على الأمانا صحف إذا نزل البلاء وأطبقا
فإذا دعوت الدمع فاستعصى بكت عنا أسي حتى تغص وتشرقا
كانت لنا يوم الشدائد أسهما نرمى بها وسوابقا يوم اللقا
ما لى أنوح على الصحافة جازعا ماذا ألم بها وماذا أحذقا
قصوا حواشيها وظنوا أنهم أمنوا صواعقها فكانت أصعقا
وأثوا بحاذقهم يكيدها بما يثنى عزائمها فكانت أحذقا
ثم يتجه بعد ذلك بكل نفسه إلى الشباب المصريين يثير عواطفهم ويهيب
بهم ان ينطلقوا فى طريق المجد والحرية مع الحذر واليقظة والتربص
للفرص، فهو يدعوهم إلى الاتحاد وإلى العلم وهما سبيل الوصول إلى
الحرية وإلى الحياة الكريمة:

أو كلما قالوا تجمع شملهم لعب الشقاق بجمعنا فنفرقا
فتدققوا حججا وحوطوا نيلكم فلکم أفاض عليكم وتدققا
فتعلموا ، فالعلم مفتاح العلا لم يبق بابا للسعادة مغلقا
ثم استمدوا منه كل قواكم إن القوى بكل أرض يتقى

ولا يزال حافظ على هذه الشاكلة ماضيا فى طريقه يحمس الشعب
ويشغل فيه جذوة الوطنية، وتواكب أشعار حافظ الأحداث التى تمر بها

البلاد ونتيجة لفجيرة مصر بوفاة الزعيم مصطفى كامل فى العاشر من
فبراير ١٩٠٨ القى حافظ ابراهيم قصيدته الرائعة فى رثاء الفقيد ، فقال:
زين الشباب وزين طلاب العلا هل أنت بالمهج الحزينة دارى
أيا قبر هذا الضيف آمال أمة فبكر وهلل والق ضيفك جاثيا
عزيز علينا أن نرى فيك (مصطفى) شهيد العلا فى زهرة العمر ذاويا
أيا قبر لو انا فقدناه وحده لكان التأسى من جوى الحزن شافيا
ولكن فقدنا كل شئ بفقدده وهيهات أن يأتى به الدهر ثانيا
فيا سائلى أين المروءة والوفا وأين الحجا والرأى ؟ ويحك هاهيا
هنيئا لهم فليأمنوا كل صائح فقد أسكت الصوت الذى كان عاليا
ومات الذى أحيا الشعور وساقه إلى المجد فاستحيا النفوس البيواليا
مدحتك لما كنت حيا فلم اجد وائى أجيد اليوم فيك المراثيا
عليك، وألا ما لذا الحزن شاملا وفيك، وإلا ما لذا الشعب باكيا
يموت المداوى للنفوس ولا يرى لما فيه من داء النفوس مداويا
وكنا نياما حينما كنت ساهدا فأشهدتنا حزنا وأمسيبت غافيا
شهيد العلا ، لا زال صوتك بيننا يرى كما قد كان بالأمس داويا
يهيب بنا: هذا بناء أقمته فلا تهدموا بالله ما كنت بانيا
يصيح بنا : لا تشعروا الناس أننى قضيت وان الحى قد بات خاليا
يناشدنا بالله ألا تفرقوا وكونوا رجالا لا تسروا الأعديا
فروحى من هذه المقام مطلة تشارفكم عنى وإن كنت باليا
فلا تحزنوها بالخلاف فإننى أخاف عليكم فى الخلاف الدواهيا
أجل، أيها الداعى إلى الخير إننا على العهد مادمننا فقم أنت هانيا

بناؤك محفوظ، وطيفك مائل وصوتك مسموع ، وإن كنت نائيا
عهديك لا تكي وتكر أن يرى أخو البأس في بعض المواطن باكيا
فرخص لنا اليوم البكاء وفي غد ترانا كما تهوى جبالا رواسيا
فيا نيل إن لم تجر بعد وفاته دما أحمر لا كنت يا نيل جاريا
ويا (مصر) إن لم تحفظي ذكر عهده إلى الحشر لا زال انحلالك باقيا
ويا أهل مصر ان جهلتم مصابكم ثقوا ان نجم السعد قد غار هوايا
وعندما أعلن الإنجليز الحماية على مصر سنة ١٩١٤ وقاموا بعزل
الخدوي عباس الثاني يتكلم حافظ عن لسان مصر وبلسانها مطالبا بالحرية
فاضحا سياسة الممالطة والوعود فيقول مخاطبا المعتمد البريطاني:

ودع الوعود فإنها	فيما مضى كانت رواية
أضحت ربوع النيل سلطنة	وقد كانت ولايئة
نرجو حياة حرة	مضمونة في ظل راية
ونروم تعليما يكون	له من الفوضى وقاية
ونود ألا تسمعوا فينا	السعاية والوشاية

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، ولم يستجب الإنجليز لمطالب
المصريين في الاستقلال يثور المصريون لكرامتهم المهذرة فتقوم ثورة عام
١٩١٩ عقب اعتقال سعد زغلول وصحبه الذي كان بمثابة الشرارة التي
أشعلت النار في وجه المحتلين ووجدت صفوف المصريين ضد الإنجليز ،
فيهب الشعب رجالا ونساء، فتشارك المرأة المصرية الرجال في الثورة ،
وتعلن عن مساهمتها فيها، يقوم حافظ ابراهيم بايصال صوته إلى الناس،
فيحي مظاهرة السيدات بقصيدة رائعة مجد فيها شجاعتهن وحمل حملة

لاذعة على مسلك الجنود الإنجليز حيالهن كما بارك ثورة ١٩١٩ وندد
بهجوم الجنود الإنجليز المسلحين على المظاهرة التي اجتازت شوارع
القاهرة متجهة صوب بيت الأمة فقال:

ورحبت أرقب جمعهنه	خرج الغوانى يحتجن
سود الثياب شعارهنه	فإذا بهن تخذن من
يسطعن فى وسط الدجنة	فطلعن مثل كواكب
ودار (سعد) قصدهنه	وأخذن يجتزن الطريق
وقد أبين شعورهنه	يمشين فى كنف الوقار
والخيل مطلقه الأعنه	وإذا بجيش مقبل
قد صوبت لنحورهنه	وإذا الجنود سيوفها
والصوارم والأسنة	وإذا المدافع والبنادق
ضربت نطاقا حولهنه	والخيل والفرسان قد
ذاك النهار سلاحهنه	والورد والريحان فى
تشيب لها الأجنة	فتطاحن الجيشان ساعات
والنسوان ليس لهن منه	فتضع النسوان
الشملى نحو قصورهنه	ثم انهزمن مشتتات

ويتهكم حافظ فى سخرية مرة بالإنجليز، ويذكرهم بهزيمتهم أمام
الألمان، ويهنئهم بالانتصار على النساء فيقول:

بنصره وبكسرهنه	فليهنأ الجيش الفخور
لبسوا البراقع بينهنه	فكأنما الألمان قد

وأثوا (بهند نبرج) مختفيا بمصر يقودهنه
فلذاك خافوا بأسهن واشفقوا من كيدهنه

لقد هزت ثورة ١٩١٩ حافظ ابراهيم وأثارت عواطفه هذا عنيفا حتى ملكت عليه كل عواطفه. وتحولت أشعاره إلى قصيدة ثائرة تلعن الإنجليز وتعلن كلمة مصر، وتخط سطور العزة المصرية الثائرة بحروف من دمائها الزكية. فكتب قصيدة رائعة يتحدث بلسان مصر، ويتغنى بوطنه وأمجاده ومآثره وحضارته القديمة. كما يتحدث على لسان مصر إلى بنينا حيث تطلب إليهم رفع بنيانها على العلم والأخلاق. وأن يتواصوا بالجد والصبر فقال:

وارفعوا دولتى على العلم والأخلاق فالعلم وحده ليس يجدى
وتواصوا بالصبر، فالصبر إن فارق قوما فما له من مسد
خلق الصبر وحده نصر القوم وأغنى عن اختراع وعد
إن فى الغرب أعينا راصدات كحلنتها الأطماع فيكم بسهد
فانقوها بجنة من ونسام غير رث العرا وسعى وكد
واصفحوا عن هنات من كان منكم رب هاف هفا على غير عمد
إننا عند فجر ليل طويـل قد قطعناه بين سهد ووجد
غمرتنا سود الأهويل فيه والأمانى بين جزر ومد
وتجلى ضياؤه بعد لأى وهو رمز لعهدى المسترد
فاستبينوا قصد السبيل وجدوا فالمعالى مخطوبة للمجد

وتضطر بريطانيا إلى إعلان تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ من طرف واحد وتصيح مصر دولة مستقلة ذات سيادة عدا التحفظات الأربعة

التي لم يرض عنها سعد وعارضها المصريون من ورائه يقف حافظ حائرا
بين النظرات الحزبية والمواقف المتضاربة فيقول:

ما لى أرى الأكمام لا تفتح والروض لا يذكو ولا ينفج
والطير لا تهلو بتنويمها فى ملكها الواسع أو تصدح
والنيل لا ترقص أمواجهه فرحى ولا يجرى بها الأبطح
والشمس لا تشرق وضاءه تجلو هموم الصدر أو تنزح
والبدر لا يبدو على ثغره من بسمات اليمن ما يشرح
والنجم لا يزهر فى أفقه كأنه فى غمرة يسبح
ألم يجنّها نبأ جاءنا بأن مصرا حرة تمرح؟
أصبحت لا أدرى على خبرة أجدت الأيام أم تمزح؟
أموقف للجد نجتازه أم ذاك للأهى بنا مسرح؟
المح لاستقلانا لمعة فى حالك الشك فاستروح
وتطمس الظلمة آثارها فأنثنى أنكر ما ألمح
قد حارت الأفهام فى أمرهم إن لمحو بالقصد أو صرحوا
فقائل لا تعجلوا إنكم مكانكم بالأمس لم تبرحوا
وقائل أوسع بها خطوة وراءها الغاية والمطمح
وقائل أسرف فى قوله : هذا هو استقلالكم فافرحوا
إن تسألوا العقل يقل عاهدوا واستوتقوا فى عهدكم تبرحوا
وأسسوا دارا لنوابكم للرأى فيها والحجا أفسحوا
ولتذكر الأمة ميثاقها ألا ترى عزتها تجرح
وتتخب صفوة أبنائها فمنهم المخلص والمصلح

وليتق الله أولو أمرها
أو تسألوا القلب يقل حاذروا
إني أرى قيذا فلا تسلموا
إن هياؤه من حرير لكم
حتم - والصبر له غاية
حتم - والأموال مشفوهة
حتم يمضى أمرنا غيرنا
أساء بعض الناس فى بعضهم
فانتهزت أعداؤنا نهزة
فالرأى كل الرأى ان تجمعوا
وكل من يطمع فى صدعكم
أخشى إذا استكثرتم بينكم
فلتصدوا ما اسطعتم فيهم
أن يسكنوا الأصوات أو يفرحوا
وصابروا أعداءكم تفلحوا
أيديكم فالقييد لا يسجح
فهو على لين به أفدح
لغيرنا من بئنا نمتح؟
نمنح إلا (مصر) ما نمنح؟
وذاك بالأحرار لا يملح؟
ظنا وقد أمسوا وقد أصبحوا
فيما وما كانت لهم تسنح
فإنما إجماعكم أرجح
فإنه فى صخرة ينطح
من قادة الآراء أن تقضحوا
فإنما فى القلة المنجح

فحافظ هنا بصف موقف المصريين من هذا التصريح عند صدوره.
واستطاع أن يقف موقف المحايد من الأحزاب، فهو لم يقف جهارا مع سعد
زغلول، ولكنه أخذ يعرض الآراء منسوبة إلى أصحابها حتى لا يوصف
بالانحياز لطرف دون آخر، ومع ذلك ففي قصيدته التى رثى بها عبد
الخالق ثروت نجده يبين رأيه فى تصريح ٢٨ فبراير ويشيد بدور ثروت
وحصوله على التصريح ويلتمس له العذر فى عدم تمكنه من الحصول
على الاستقلال الكامل فقول:

وأتى بأقصى ما ينال مفاوض يسعى بغير كتائب وحراب

واستل من أشدق أساد الشرى
علمنا عضضن عليه بالأنياب
إن فاته بعض الأمانى فاذكروا
أنا أمام محنكين صلاب
رجل يفاوض وحده عن أمة
إن لم يفز فوزا فليس بعاب

وبعد تصريح ٢٨ فبراير الذى تضمن إنهاء الحماية البريطانية
والاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة محدودة يشعر حافظ ابراهيم
بالتفاؤل والغبطة، ويستقبل هذا العهد الجديد بقصيدة يقول فيها:

أشرق فدنك مشارق الإصباح
وأمت لثامك عن نهار ضاحى
بوركت يا يوم الخلاص، ولا ونت
عنك السعود بغدوة ورواح
بأله كن يمنا وكن بشرى لنا
فى رد مغترب وفك سراح

وحافظ فى سعادته بعيد الاستقلال وفرحه به يرى من واجبه أن يسوق
التهنئة إلى مصر :

فاليوم قرى يا كنانة واهدئى
حرم الكنانة لم يكن بمباح
من ذا يغير على الأسود بغابها
أو من يعود بمسبح التمساح

ويعرب حافظ عن أمله فى استقلال السودان فيشيد بوحدة وادى النيل
فيقول:

للنيل مجد فى الزمان مؤثل
من عهد (أمون) وعهد (فتاح)
فصل العصور به وسل آثاره
فى (مصر) كم شهدت من السياح

وبعد ذلك ينادى بوحدة مصر والسودان فيقول:

يا صاحب القطرين غير مدافع ما مثل ساحك فى العلامن ساح
لك مصر والسودان والنهر الذى يختال بين ربا وبين بطاح

ثم يعبر عن إيمانه بالحكم النيابى وعلان الدستور الذى كان أملا
يداعب الأمة وأصبح حقيقة بعد أن تألفت لجنة الدستور وتلاحقت
المؤامرات والتدابير للعبث به وتأخير صدور ه فيقول:

البرلمان تهيأت أسبابه لم يبق من سبب سوى المفتاح
هو فى يديك ودعوة لرعية تنشى بالسنة عليك فصاح

كما يردد حافظ أهمية مبدأ وحدة وادى النيل مناديا بأن النيل لأهله:
النيل منبعه لنا ومصبه ما إن له عن أرضها تحويل
وثقت بك الثقة التى لم يفرج للريب فيها والشكوك سبيل

ويحاول حافظ أن يقف على الحياد أمام حزب الوفد برياسة سعد
زغلول، وحزب الأحرار الدستوريين برياسة عدلى يكن. حتى يتولى الحكم
اسماعيل صدقى ويحكم مصر بالحديد والنار. ويسانده فى استبداده الإنجليز
الذين يزعمون أنهم يقفون على الحياد، وهم فى الحقيقة قد جعلوا منه
دكتاتورا يتحكم فى رقاب المصريين، فيقوم بالغاء دستور ١٩٢٣،
واستبداله بدستور ١٩٣٠ فينظم حافظ قصيدة يندد فيها بالإنجليز وحيادهم:
قد مر عام يا سعاد وعام وابن الكنانة فى حماه يضمام
قل للمحايد هل شهدت دمانا تجرى وهل بعد الدماء سلام؟

سفكت مودتنا لكم وبدالنا
إن المراحل شرها لا يتقى
لم يبق فينا من يمنى نفسه
أمن السياسة والمروءة أننا
إنا جمعنا للجهاد صفوفنا
أن الحياذ على الخصام لثام
حتى بنفس كربهن صمام
بودادكم فودادك أحلام
نشقى بكم فى أرضنا ونضام؟
سنموت أو نحيا ونحن كرام

ولما ازداد بطش صدقى وحكومته بالبلاد هاجم حافظ سياسته وانطلق
فإذا به وارد جبار، يخرج من قممه متوعدا صدقى بسوء المصير وكأنما
تجسمت ألام الشعب كلها فى فواده ، فتحول شعره إلى أسهم يقذف بها
صدقى وأعوانه، كما بدأ يستحث النفوس لعودة دستور ١٩٢٣ ميلورا فى
شعره آمال أمته. وبجانب اهتمام حافظ بقضايا وطنه مصر فقد كان فى
كثير من الأحيان يدافع عن الوحدة العربية والوحدة الاسلامية، وعن علاقة
الشوام بمصر ويجعل حافظ أساس الدعوة إلى الوحدة أساسا حضاريا ثقافيا
متمثلا فى الأمانى والأمال. ولا يقصره على الوحدة الدينية أو الجنسية
"فالوحدة فى نظره تضم الشرقيين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم فهى
(شرقية) بعيدة المدى فيتوجه إلى مطران الشام قائلا:

"مسرة" الشام ! إنا
تقوا فإننا وتقنا
إنا نرى فيك "عيسى"
قربت بين قلوب
فأنت فخر النصارى
إخوانكم ما حيننا
بكم وجنتنا قطينا
يدعو إلى الخير فينا
قد أوشكت أن تبينا
وصاحب المسلمينا

ونجد هذا التأكيد فى المساواة بين الأديان والتسامح فيما بينها فى قصائده المختلفة كقوله فى قصيدته التى يمدح فيها السلطان عبد الحميد:
يرعى لموسى والمسيح واحمد حق الولاء وحرمة الأديان
فخذوا الموثق والعهود على هدى التوراة والانجيل والفرقان
وقوله فى قصيدة أخرى:

تحالف فى ظل الهلال إمامه وحاخامه بعد الخلاف وراهبه
وإن كان حافظ قد وسع دائرة الوحدة متجاوزا عن الأسس الدينية والجنسية، فإنه قد أسرف إسرافا بعيدا فى مدى هذه الوحدة. وذلك حين حاول أن يضم فى هذه الوحدة الشرق الأقصى إلى جانب المشرق العربى. فقد جرى فى شعره ذكر الصين واليابان فى أكثر من قصيدة. وقد تمنى فى مواضع مختلفة من شعره أن ينتظم الشرق الأقصى فى وحدة وثيقة مع الشرق العربى ومن ذلك قوله:

متى أرى الشرق أدناه وأبعده عن مطمع الغرب فيه غير وسان
تجرى المودة فى أعراقه طلقا كجربة الماء فى أثناء أفغان
لا فرق بين بوذى يعيش به ومسلم ويهودى ونصرانى

وعندما قامت الحرب بين روسيا واليابان عام ١٩٠٦ نجد حافظ يقف بجانب اليابان، لأنها دولة شرقية ناهضة، ولأنها تحارب روسيا العدو التقليدى لتركيا. ولقد أثارت هذه الحرب عواطف حافظ الشعرية فنظم قصيدته المشهورة التى مطلعها:

لا تلم كفى إذا السيف نبا صح منى العزم والدهر أبى

وفيه يمدح إمبراطور اليابان موضحا وطنية الشعب اليابانى وفهمه
الناضج للوطنية وعزمه على محاربة أعداء بلاده فيقول:
هكذا " الميكاد" قد علمنا أن نرى الأوطان أما وأبا

وهو إذ يعجب كيف تمكنت اليابان الدولة الشرقية الصاعدة من أن
تصبح فى مصاف الدول الغربية المتحضرة يرد هذا إلى همة الامبراطور
اليابانى فيقول:
ملك يكفيك منه أنه أنهض الشرق فهز المغربيا

ويستشعر فى انتصار اليابان على روسيا عزة الشرقيين السلبية التى
أعادها لهم أصحاب الجنس الأصفر من اليابانيين:
تسوعنا الحرب وإن أصبحت تدعو رجال الشرق أن يفخروا
أتى على الشرقى حين إذا ما نكر الأحياء لا يذكر
حتى أعاد " الصفر " أيامه فاننصف الأسود والأسمر

وعلى كل حال فإن الشرق العربى شعر بهزة وطنية بانتصار اليابان
لانتسابها إلى الأمم الشرقية الناهضة، وكان يتخذ من هذا دعامة حضارية
يتمنى أن يرى الشرق العربى كله يذخر بأمتلتها ، فهو دائما ينعى عليه
تأخره ويهيب به أن يسترد مجده وعظمته.

ونستطيع أن نقول إن دعوة حافظ إلى الجامعة الشرقية هي دعوة عملية
ببناء أكثر منها دعوة قائمة على بعث المجد الغابر وترديد النغمات الجوفاء
بالمجد الخالد.

ونراه يتمنى ان يلحق الشرق بالغرب فيقول:

وسوف تقضى عليهم طبائع العمران
فيصبح الشرق غربا ويستوى الحاققان

وهو لا يزال يرسم للشرق المنهج القويم للنهوض كما كان يفعل مع
أبناء وطنه مصر في صراحة وجرأة. دون أن يكون متعصبا لشرقيته
تعصبا أعمى، ولكنه تعصب واع، وهذا نتيجة إيمانه بالتنظير الاجتماعي
وما تقضى به طبائع العمران.

فالدعوة الشرقية عند حافظ كان أساسها العمل الجدى فى سبيل الرقى
حتى يصل الشرق إلى مدنفة الغرب فى العلم والاختراع، وحول ذلك يقول:

تمشى الشعوب لقصدها قدما وشعب النيل آخر
كم فى الكنانة من فتى ندب وكم فى الشام قابر
هذا يطير مع الخيال وذاك يرتجل النوار
جهلوا الحياة وما الحياة لغير كداح معامر
يجتاب أجواز القفار ويمتطى متن الزواجر

ويهمنا أن نلاحظ أمرا هاما، وهو أن حافظا لم تبعث به وبعاطفته القومية
هذه الوحدة الشرقية المتسعة ولا تلك الوحدة العربية الضيقة، إذ أنه لا زال

يشيد بمصر وهذا طبيعي لأنه جعل مصر معقد الأمانى القومية العربية
وأنها ذات المكانة الممتازة فى قلوب العرب. فكم صرح أنها زعيمة الشرق
وكم عبر على لسانها بهذه الزعامة فى قصيدة بعنوان (مصر فوق الجميع)
أنشدتها كوكب الشرق ام كلثوم:

وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أبنى قواعد المجد وحدى
أنا تاج العلاء فى مفرق الشرق ودراتيه فرائد عقدى
أنا إن قدر الإله مماتى لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى
ما رمانى رام وراح سليما من قديم عناية الله جندى
فرغم مصرية حافظ الواضحة فإنه لم يقتصر على مصريته
المحدودة، وإنما كان يرى الإخاء القائم بين الشعوب العربية بوجوده
ويعتقه بإيمانه.

وعبر عن هذا الشعور فى مواضع عدة لعل من أقواها ما جاء فى
قصيدته التى حيا فيها الشام فى حفل تكريمه:

لى موطن فى ربوع النيل أعظمه ولى هنا فى حماكم موطن ثانى
بنى رأيت على أهرامها حلالا من الجلال أراها فوق "لبنان"
ولا يجد فى أدياب العروبة من البلدان المختلفة إلا أخوة للمصريين فى
ربوع النيل:

كم فى نواحي ربوع النيل من طرف (الليازجى) و(صروف) و (زيدان)
وكم لأحيائهم فى الصحف من أثر له (المقطم) و (الأهرام) ركنان

وحافظ يعد بهذه القصيدة إماما لدعاة القومية العربية بمفهومها الحديث،
ثم هو يرى فى تفرق الوطن العربى وتمزقه قضاء تاما على ما نتمناه من
وحدة تجمع شملنا فيحذر عاقبة الشقاق:

إن دام ما نحن فيه من مدايرة وفتنة بين أجناس وأديان
رأيت رأى (المعرى) حين أرهقه ماحل بالناس من بغى وعدوان
لا تطهر الأرض من رجس ومن درن حتى يعاودها (نوح) بطوفان
فحافظ قد خرج عن نطاق قومية مصرية ضيقة إلى رحاب قومية
عربية فسيحة تضم أبناء شعب واحد، بل بين أفراد أسرة واحدة، فقد صور
حافظ هذا المعنى فى قصيدته التى أنشدها فى حفل اقيم لتكريم بعض
السوريين فى فندق شبرد سنة ١٩٠٨ وافتتحها بهذا المطلع البارح
الصادق:

لمصر أم لربوع الشام تنتسب هنا العلا وهناك المجد والحسب
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما قلب الهلال عليها خافق يجب
وهو يؤكد أن الوطن العربى جسد واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له
سائر الجسد بالسهر والحمى:

إذا ألمت بوادى النيل نازلة باتت لها راسيات الشام تضطرب
وإن دعانى ثرى الأهرام ذو ألم أجابه فى ذرا لبنان منتحب
كما يقول فى قصيدة أخرى:

هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسها العرب
فما الكنانة إلا الشام عاج على ربوعها من بنيتها سادة نجب

ولما أحس حافظ برغبة بعض المغرضين إلى هجر اللغة العربية الفصحى واستبدال العامية بها . وتزعم هذه الدعوة للعامية رجال أمثال شبلى شميل ووليم ويلكوكس وغيره من بعض النفعيين الذين عاونوهم وكادت دعوتهم تتجح لولا جهاد حماة اللغة وعلى رأسهم حافظ ابراهيم الذى كان شديد التعلق باللغة الفصحى ومن أكبر أنصارها، فدافع عن العربية الفصحى بروح لا يتخللها الملل، وكان له اليد الطولى فى إيقاظ الرأى العام ، وكانت أفكاره امتدادا لما نادى به الأفغانى وعبد الله النديم بالاهتمام باللغة العربية فبين محاسن اللغة العربية وأظهر مزاياها ودعا إلى انهاضها بقوله:

أيطر بكم من جانب الغرب ناعب ينادى بوأدى فى ربيع حياتى
ويستمر حافظ فى هذه القصيدة مشيرا إلى ثراء اللغة العربية رغم ما يرميها أبناؤها به من القصور عن استيعاب الحضارة ومظاهرها وأدواتها.
ويمضى فى تقرير أهلها ولوم أبنائها الذين زهدوا فيها والقصيدة كلها تدل دلالة قوية على اعتبار حافظ للغة العربية انها أداة الوحدة العربية الفعالة وعروتها الوثقى لأن انقطاع الصلة بيننا وبين هذه اللغة اشبه بتجريد المصريين من الذاكرة.

هذا هو حافظ الشاعر صاحب النزعات الوطنية والقومية والمنصف للحقائق التاريخية والذى كان فى شعره أمثلة متعددة للدفاع عن مصر والشرق بأجمعه، كما كان معينا لا ينضب من الكفاح الوطنى، وكان حبه للوطن يملك عليه شغاف قلبه مما جعل قصائده أشبه بالأغانى والتغاريد.

الفصل الثالث

حافظ إبراهيم شاعر مصر الاجتماعي

يتميز شاعر النيل حافظ إبراهيم عن غيره من شعراء عصره بأنه عرف كيف يساير عواطف أبناء وطنه، فضرب على الوتر الحساس، وبلغ من نفس الشعب المصري كل مظاهر الحب والتقدير والإجلال. لقد نشأ حافظ بيتاً فقيراً كما نشأ كثير من الأفاضل والعباقرة، وأحاطت بحياته كل الظروف الصعبة، وسائر أخلاق المصريين وعاداتهم وأدابهم فأضحكهم وأبكاهم خلال نقده لحياتهم الاجتماعية والسياسية بأسلوبه اللاذع من خلال شعره الاجتماعي فكان جريئاً في مواجهة مواطنيه صريحاً في الجهر بذلك فصور روح الشعب المومج الحزين ومشاكله الاجتماعية في أسى ودهشة. وإلى جانب ذلك فقد كان شاعراً مدافعاً عن وطنه، داعياً إلى إصلاحه ورفعته شأنه بطريقة أجاد فيها وصف أحوال بلاده إجادة الرسام الماهر ولا غرو فقد تتلمذ على يد "الشيخ محمد عبده" وتأثر بأفكار "قاسم أمين" و"سعد زغلول" و"البارودي" وغيرهم، فكانت لكتاباته إلى جانب أشعاره مجموعات من الكلمات فيها التعريض اللازم والسخرية البالغة التي يرسلها كما يرسل كاتب قصائد المدح إلى ممدوحه وهي في الوقت نفسه ذم وانتقاص وقد وصف ذلك في أشعاره كما وصفه في كتابه "ليالي سطوح" الذي كتبه بعد وفاة صديقه الشيخ محمد عبده ووصف فيه ما يجول بخاطره من هموم وأشجان وتحدث عما يدور في الحياة المصرية متعرضاً لأخلاق الناس وغفلتهم عن مصالحهم وإهمالهم لحقوق وطنهم، وعن ضرورة

استثارة الهمم فى نفوسهم، واستفزاز هذه النفوس لتهذيبهم وإصلاحهم. والجدير بالذكر أن حافظ ابراهيم لم يكن شاعر مصر وحدها بل كان شاعر العربية قاطبة على الرغم من لقب "شاعر النيل" الذى أطلقه عليه بعض الأدباء والصحفيين.

لقد استغرق شعر حافظ الاجتماعى معظم ما كتبه فى ديوانه فقد أمضى حياته ينظم فيه بعد اتصاله بقيادة الفكر كالإمام محمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول وقاسم أمين وغيرهم وكان حافظ يردد دائما أن هؤلاء المفكرين قالوا له إذا نظمت فانظم مثل هذا الشعر الاجتماعى. ولذلك كان متفردا بهذه الطريقة. وكان يقول دائما ان الشاعر الذى لا ينظم فى الاجتماعيات ليس عندى بشاعر.

لذلك كان يجلس مع هؤلاء المفكرين وغيرهم ويقتبس منهم الأفكار فيبنى عليها ويدخلها فى شعره.

وبالرغم من المشاكل الاجتماعية التى عرضها حافظ فى شعره مرتبطة بزمنه إلا أنها تكاد تكون مشاكل دائمة ما زلنا نعانى منها بشكل أو بآخر، فهى متصلة بنفوسنا وجدناها أمانا ووجدنا الشعر الذى يتحدث عنها وكأنه وضع لزماننا.

فإذا تعرضنا للقوائد الاجتماعية عند حافظ، نجدها تشعب لتشمل كل عيوب المجتمع التى كان يسعد المحتلين انتشارها فى جسد المجتمع المصرى، حتى يبقى دائما مجتمعا متخادلا ومتواكلا ومحتاجا للغير. فإذا وقفنا عند قصيدته على لسان اللغة العربية التى نشرها فى سنة ١٩٠٣ نجد ان الذى دفعه إليها ما رآه من عمل المستعمرين على إماته اللغة العربية

وبعث اللغة الإنجليزية حتى يفصلوا مصر عن غيرها من البلاد العربية. وقد ثار حافظ منددا بهذه السياسة ممتدحا اللغة العربية الفصحى لغة القرآن. وأخذ يحمس المصريين ويدفعهم إلى الوقوف في وجه الداعين إلى هذه الغاية ويحذرهم من آثار الفرنجة الجارفة التي أصابت البلاد. لقد فهم حافظ تماما أن هجر اللغة العربية لا يقصد منه إلا كسر شوكة القومية، وإحلال الإنجليزية محل العربية حتى لا يصبح لنا تراث ثقافى نعتز به، وتأوى إليه نفوسنا. لذلك كتب هذه القصيدة التي يبرز فيها على لسان اللغة العربية سخريتها واستهجانها لما يقوم به بعض أبنائها من هجرها والالتجاء إلى اللغات الأجنبية الوافدة فيقول:

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى	وناديت قومى فاحتسبت حياتى
رمونى بعقم فى الشباب وليتتى	عقمت فلم أجزع لقول عداتى
ولدت ولما لم أجد لعرائسى	رجالا وأكفاء وأدت بناتى
وسعت كتاب الله لفظا وغاية	وما ضقت عن أى به وعضات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آله	وتتسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن	فهل سالوا الغواص عن صدقاتى
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسنى	ومنكم وإن عز الدواء أساتى
فلا تكلونى للزمان فإننى	أخاف عليكم ان تحين وفاتى
أرى لرجال الغرب عزا ومنعة	وكم عز أقوام بعز لغات
أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا	فيا ليتكم تأتون بالكلمات
أيطركم من جانب الغرب ناعب	ينادى بوأدى فى ربيع حياتى
ولو تزجرون الطير يوما عملتم	بما تحته من عشرة وشتات

سقى الله فى بطن الجزيرة أعظما
حفظن ودادى فى البلى وحفظته
وفاخرت اهل الغرب والشرق مطرق
أرى كل يوم بالجرائد مزلقا
واسمع للكتاب فى مصر ضجة
أيهجرنى قومي - عفا الله عنهم
سرت لوثة الأفرنج فيها سرى
فجاعت كتوب ضم سبعين رقعة
إلى معشر الكتاب والجمع حافل
فإما حياة تبعث الميت فى البلى
وإما ممات لا قيامة بعده

يعز عليها أن تلين قناتى
لهن بقلب دائم الحسرات
حياء بتلك الأعظم النخرات
من القبر يدنينى بغير أناة
فأعلم أن الصائحين نعاتى
إلى لغة لم تتصل برواة
لعاب الأفاعى فى مسيل فرات
مشكلة الألوان ومختلفات
بسطت رجائى بعد بسط شكاتى
وتنبت فى تلك الرموس رفاتى
ممات لعمرى لم يقس بممات

واستمر حافظ يدافع عن اللغة العربية ويطالب المصريين التمسك بها
لدرجة ان أمير الشعراء احمد شوقى قال عنه:
يا حافظ الفصحى وحارس مجدها وأمام من تجلت من البلغاء
مازلت تهتف بالقديم وفضله حتى حميت أمانة القدماء
خلفت فى الدنيا بيانا خالدا وتركت أجيالا من الأبناء
وغدا سيذكرك الزمان ولم يزل للدهر إنصاف وحسن جزاء

ويستمر حافظ فى الدفاع عن أهل وطنه وتراثهم ومقدساتهم فيتوجه
بقصيدة إلى سعد زغلول ناظر المعارف آنذاك، وينعى على الحكومة
إغفالها التعليم وأخذها برأى المستشار البريطانى " دنلوب"

قد قام بينهم وبين العلم ضيق الحال سدا
فاردد لنا عهد الإمام وكن بنا الرجل المفدى
ثم يكشف السر فى هذا التخلف ويرده إلى رغبة الاحتلال فى تخلفنا
ولكنه لا يلوم الاحتلال بل يلوم الحكومة الموالية للاحتلال :
أنا لا ألوم المستشار إذا تعلق أو تصدى
فسبيله أن يستبهد وشأننا أن نستعدا
هى سنة المحتل فى كل العصور وما تعدى

ويستمر حافظ فى ترقب الأحداث الاجتماعية لیتخذها مادة يصل عن طريقها إلى إظهار العيوب التى تنهش جسم المجتمع المصرى فقد قامت فى مصر ضجة حول أغرب قصة زواج فى تاريخ مصر والتى أحدثت زلزالا هائلا فى كيان الشعب المصرى وأثارت زوبعة أثارها زواج الصحفى الشيخ على يوسف صاحب المؤيد فى عام ١٩٠٤ من ابنة الشيخ عبد الخالق السادات شيخ السادة الوفائية. على غير رغبة الأخير بسبب مستوى الزوج الذى لا يؤهله لهذا الزواج. وحدث ان عقد العقد دون علم الأب. فرفع والد الزوجة الأمر إلى المحكمة الشرعية طالبا فسخ العقد لعدم الكفاءة فى النسب بين الزوجين فكيف يتزوج جورنا لجنى من بيت حسب ونسب ومع أن الشيخ على يوسف أثبت شرف نسبه، فان الأهواء السياسية لعبت فى قضية الزوجية دورا هاما شغل رأى العام والصحافة والشعراء فقد ساند الخديوى عباس الثانى على يوسف بينما وقف مصطفى كامل ضده فى ذلك الحادث وقد نظم حافظ قصيدة ينعى فيها على المصريين وجمودهم ، واستمساكهم بالتقاليد، وما هم عليه من فوضى فى الرأى

بأسلوب يحمل منابع الحسرة فى نفسه بشكل خرج عن المألوف وينقد
لاذع. فيتحدث عن هذه القضية ويبدأ قصيدته عاتبا على مصر ومنتقدا
لحياة المصريين الاجتماعية فيقول:

وحطمت اليراع فلا تعجبنى وعفت البيان فلا تعتبنى
فما أنت يا مصر دار الأديب ولا أنت بالبلد الطيب
وكم فيك يا مصر من كاتب أقال اليراع ولم يكتب
فلا تعذلىنى لهذا السكوت فقد ضاق بى منك ما ضاق بى
أعجبنى منك يوم الوفاق سكوت الجماد ولعب الصبى؟
وكم غضب الناس من قبلنا لسلب الحقوق ولم تغضب
أنابتة العصر إن الغريب مجد بمصر فلا تلعبى
يقولون : فى النشئ خير لنا وللنشئ شر من الأجنبى
أفى (الأريكية) مثوى البنين وبين المساجد مثوى الأب؟
(وكم ذا بمصر من المضحكات) كما قال فيها (أبو الطيب)
أمور تمر وعيش يمر ونحن من اللهو فى ملعب
وشعب يفر من الصالحات فرار السليم من الأجرى
وصحف تطن طنين الذباب وأخرى تشن على الأقرب
وهذا يلوذ بقصر الأمير ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنب فى ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين على غير قصد ولا مأرب
وقالوا : دخيل عليه العفاء ونعم الدخيل على مذهبى
رأنا نياما ولما نفق فثمر للسعى والمكسب

وماذا عليه إذا فاتتنا
ألفنا الخمول وياليتنا
وقالوا: (المؤيد) فى غمرة
دعاة الغرام بسن الكهول
فضح لها العرش والحاملوه
ونادى رجال بإسقاطه
وعدوا عليه من السيئات وقالوا
وقالوا لصيق ببيت الرسول
وزكى (أبو خطوة) قولهم
فما للتهانى على داره
وما للوفود على بابيه
وما للخليقة أسدى إليه
فيا أمة ضاق عن وصفها
تضيع الحقيقة ما بيننا
ويهضم فينا الإمام الحكيم
على الشرق منى سلام الودود
لقد كان خصبا بجذب الزمان

ونحن على العيش لم ندأب
ألفنا الخمول ولم تكذب
رماه بها الطمع الأشعبي
فجن جنونا ببنت النبى
وضح لها القير فى يثرب
وقالوا : تلون فى المشرب
ألوفنا تدور مع الأحقـب
أغار على النسب الأنجب
بحكم أحد من المضرب
تساقط كالمطر الصيب؟
تزف البشائر فى موكب
وساما يليق بصدر الأبي؟
جان المفوه والأخطب
ويصلى البرئ مع المذنب
ويكرم فينا الجهول الغبى
وإن طأطأ الشرق للمغرب
فأجذب فى الزمن المخصب

ويشير حافظ إلى الاتفاق الودى الذى تم بين انجلترا وفرنسا عام ١٩٠٤

والذى أباح لانجلترا إطلاق يدها فى مصر فيقول:

أيعجبنى منك يوم الوفاق سكوت الجماد ولعب الصبى؟

وكم غضب الناس من قبلنا لسلب الحقوق ولم نغضب

ويسخر حافظ ابراهيم من نفاق البعض وما يراه من فوضى الرأى
فيقول صارخا:

(وكم ذا بمصر من المضحكات) كما قال فيها "أبو الطيب"
أمور تمر وعيش يمر ونحن من اللهو في ملعب
وشعب يفر من الصالحات فرار السليم من الأجر

ثم يلتفت إلى الصحافة ويندد بموقفها من الشيخ على يوسف فيقول:
وصحف تظن ظنين الذباب وأخرى تشن على الأقرب
وهذا بلوذ بقصر الأمير ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا بلوذ بقصر السفير ويطنّب في ورده الأعذب

فحافظ يسخر هنا من سوءات الشعب المتقلب، الذى اجتمع نفاقه ورضاه
على شئ واحد، ثم يلتفت إلى الأبناء الذين يجذبون الناس إليهم بتلاعبهم
بالألفاظ فيخلطون الباطل بالحق ، مما يؤثر على الحقيقة فيقول:

وأديب قوم تستحق يمينه قطع الأنامل أو لظى الإحراق
يلهو ويلعب بالعقول بيانه فكأنه فى السحر رقية راقى
فى كفه قلم يمّج لعابه سما وينفثه على الأوراق
يرد الحقائق وهى بيض نصع قدسية علوية الإشراق
فيردها سوداء على جنباتها من ظلمة التمويه ألف نطاق

عريت عن الحق المقدس نفسه فحياته ثقل على الأعناق
لو كان ذا خلق لأسعد قومه ببيانه ويراعه السباق

وقد فند حافظ أفكار هؤلاء ووقف ضد محاولاتهم تقسيم الرأي العام
والساسة وأهل الرأي موقف المخاصم، والمقاطع والمهاجم والمهاندن.
وقد تعرض حافظ بسبب هذه القصيدة للهجوم فاتهمه البعض بأنه لم
يتعمق درس المشكلات الاجتماعية عندما تحدث عن قضية الزوجية وذلك
أنه لم يبين إهدار حرية الفتاة في أن تتزوج بمن تحب، ولم يشر إلى
التمسك التقليدي بالأنساب والاحساب. فوقف بذلك وقفة المتشكك من كل
محاولة للإصلاح بعد أن تفجرت قضية الزوجية بشكل هز المجتمع
المصرى هذا عنيفا وقاسيا.

ولما راودت فكرة التعليم الجامعى خلد المصريين وأجمع قادة الإصلاح
بينهم على إنشاء جامعة وقرروا جمع التبرعات من أجل ذلك ناشد حافظ
ابراهيم الأغنياء على التبرع بقوله:

إن كنتم تبدلون المال عن رهب فنحن ندعوكم للبذل عن رغب
وهو يرى ان الجامعة دار العلم العميم الذى يؤدى إلى تنوير المجتمع
وأنها كالشهاب بجانب تلك الكتاتيب والمدارس التى يشبهها بالمصابيح
فقال:

ذر الكتاتيب منشيها بلا عدد ذر الرماد بعين الحانق الأرب
فأنشئوا ألف كتابٍ وقد علموا أن المصابيح لا تغنى عن الشهب

وكان يرى أن الجامعة ضرورية للأمة حتى تجد حاجتها من
المتخصصين الأكفاء الذين تعلموا فن العلوم الحديثة فقال:
ومن يميّط ستار الجهل إن طمست معالم القصد بين الشك والريب
فما لكم أيها الأقوام جامعة إلا بجامعة موصولة السبب

ويتعجب في آخر القصيدة من حال مصر ويتمنى أن يراه عزيز الجانب
موفور الغنى متحررا من قيود الجهل والعادات البالية العتيقة فيقول:
متى نراه وقد باتت خزائنه كنزا من العلم لا كنزا من الذهب
هذا هو العمل المبرور فاكتتبوا بالمال إننا اكتتبنا فيه بالأدب

وهو يشير في هذا الشعر إلى جهود الطبقة المفكرة في تشجيع المشروع
والدعوة إلى نجاحه. وقد كانت جريدة اللواء توجه إلى التعليم العالي
اهتماما خاصا حيث تبنى مصطفى كامل هذه الفكرة ودعا إليها على
صفحات هذه الجريدة منذ عام ١٩٠٤، وناشد المحبين لارتقاء البلاد على
المساهمة فيها، كما عمل سعد زغلول وقاسم أمين من أجل إنجاح مشروع
الجامعة، ومن أجل اللغة العربية واعتبارها لغة قومية. وساعد على هذا
انتقاد الشيخ على يوسف للسياسة الانجليزية في التعليم في جريدة المؤيد.
وكانت كل هذه الآراء تنصهر في بوتقة حافظ الشعرية لتخرج قصائد
تطالب بإصلاح التعليم وإنشاء الجامعة المصرية الحديثة.
أما عن الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط فقد نالت من شعر حافظ
الكثير حيث دعا إلى الوحدة الوطنية والتسامح بين الأديان قائلا:

هلاک الفرد منشؤه تـوان وموت الشعب منشؤه انقسام
وبعد أن استفحل الداء واستشرى عندما ثارت الفتنة بين أبناء الأمة في
سنة ١٩١١ لأسباب مصطنعة مفتعلة ، استغلها الإنجليز كوسيلة لتبرير
احتلالهم لمصر بحجة المحافظة على الأمن، كما استخدموها لتمزيق وحدة
الصفوف بالتفرقة والفتنة حيث داب السير "الدون جورست" المعتمد
البريطاني في مصر على ضرب الوحدة القومية المصرية. ورأى بدهائه
أن يستنزف قوتها بالتفرقة حتى تخبو جذوتها فسارت سياسته على وجهين:
وفاق مع الخديوى عباس الثانى ومؤامرات للتفرقة بين أبناء الشعب
الواحد. واتخذ لهذا الغرض من بعض الصحف الموالية للاحتلال سندا في
إثارة النفوس إلى التناؤب والخصام. كما استغل بعض ضعاف النفوس حادثة
مقتل "بطرس غالى" رئيس النظار فى إشعال هذه الحركة. وعقد مؤتمر
قبطى بأسبوط ومؤتمر إسلامى بالقاهرة ردا على المؤتمر القبطى. ولكن
المصريين بما جبلوا عليه من التسامح الدينى استطاعوا أن يفوتوا على
المحتل غرضه فى الوقیعة بين المصريين، وردوا كيده إلى نحره، مما
أسدل على هذه الفتنة الستار دون أن تخلف أثرا فلم يخرج الأمر عن كونه
خلاقا عارضا قام بين أبناء مجتمع واحد وانتهى بتدخل عقلاء الأمة وقد
وقف حافظ ابراهيم خلال ذلك مهتزا الوجدان هائج الخاطر يشعر بالاشفاق
على وطنه.
وينتهز حافظ عودة الخديوى عباس من دار الخلافة سنة ١٩١١ فيشير
فى قصيدته التى هناه بها إلى خلاف المسلمين والأقباط داعيا إياهم إلى
العمل على تلافیه حيث يقول:

كم تحت أذيال الظلام متيم
ما أنت في دنياك أول عاشق
أهرمتي يا ليل في شرخ الصبا
لا أنت تقصر لى ولا أنا مقصر
الله موقفنا وقد ناجيتها
قالت: من الشاكي؟ تسائل سربها
فأجبتها وعجبن كيف تجاهلت:
أنا من عرفت ومن جهلت ومن له
أسلمت نفسى للهوى وأظنها
وأنتيت وحدو بى الرجاء ومن أتى
أشكو لذات الخال ما صنعت بنا
لا السهم يرفق بالجريح ولا الهوى
لو تتظرين إليه فى جوف الدجى
يمشى إلى كنف الفراش محاذرا
يرمى الفراش بناظريه وينثى
فكأنه - والياس ينشف نفسه -
رشقت به فى كل جنب مدية
فكأنه فى هوله وسعيه
هذا وحقك بعض ما كابدته
قالوا: أهذا أنت! ويحك فائتد
كم نفشه لك تستثير بها الهوى

دامى الفؤاد وليلة لا يعلم
راميه لا يحنو ولا يترحم
كم فيك ساعات تشيب وتهرم
أتعبتني وتعبت، هل من يحكم؟
بعظيم ما يخفى الفؤاد ويكتم
عنى، ومن هذا الذى يتظلم؟
هو ذلك المتوجه المتألم
لولا عيونك - حجة لا تفحم
مما يجشمها الهوى لا تسلم
متحرما بفنائكم لا يحرم
تلك العيون وما جناه المعصم
يبقى عليه ولا الصبابة ترحم
متمللا من هول ما يتجشم
وجلا يؤخر رجله ويقدم
جزعا ويقدم بعد ذلك ويحجم
للقتل فوق فراشه يتقدم
وأنساب فيه بكل ركن أرقم
واد قد أطلعت عليه جهنم
من ناظريك، وما كتمتك أعظم
حتام تنجد فى الغرام وتتهم
(هاروت فى اثنائها يتكلم)

إنا سمعنا عنك ما قد رأينا وأطال فيك وفي هواك اللوم
 فاذهب بسحرك قد عرفتك واقتصد فيما تزين للحسان وتوهم
 أصغت إلى قول الوشاة فأسرفت فى هجرها وجنت على وأجرموا
 حتى إذا يؤس الطبيب وجاءها أنى تلفت تتدمت وتتدموا
 واثت تعود مريضها لا بل أثت منى تشيع راحلا لو تعلم
 أقسمت (بالعباس)، إني صادق فمريهم بجلاله أن يقسموا
 ملك عدوت على الزمان بحوله وغدوت فى آلهه اتتغم
 النجم من حراسه ، والدهر من خدامه ، وهو العزيز المنعم
 هللت وحين رأيت ركبك سالما ورايت (عباسا) به يتبسم
 وحمدت ربي حين حل عربنه متجدد العزمات ذاك الضيغم
 خفقت قلوب المسلمين واشفقت دار الخلافة والمليك الأعظم
 ودعا لك البيت الحرام فأمنت بطحاء مكة الحطيم وزمزم
 ودوى بمصر لك الدعاء فنيها وسهولها وفصيحتها والأعجم
 ومشى الصغير إلى الكبير مسائل يتسقط الأخبار أو يتتسم
 حتى اطمأنت بالشفاء نفوسهم وطلعت بالسعد العميم عليهم
 مولاي أمتك الوديعه أصبحت وعرا المودة بينها تتقصم
 نادى بها القبطى ملء لهاته أن لا سلام وضاق فيها المسلم
 وهم أغار على النهى وأضلها فجرى الغبى وأقصر المتعلم
 فهموا من الأديان مالا يرتضى دين ولا يرضى به من يفهم
 ماذا دها قبطى مصر فصدته عن ود مسلمها وماذا ينقم؟
 وعلام يخشى المسلمين وكيدهم والمسلمون عن المكاييد نوم

وفى نهاية القصيدة يؤكد حافظ اشتراك المصريين جميعا فى ما

تتعرض له مصر من متاعب:

قد ضمنا ألم الحياة وكلنا
بشكو، فنحن على السواء وأنتم
إنى ضمين المسلمين جميعهم
أن يخلصوا لكم إذا أخلصتم
رب الأريكة، إننا فى حاجة
لجميل رأيك والحوادث حوم
فأفض علينا من سمائك حكمة
تأسو القلوب فإن رأيك أحكم
واجمع شتات العنصرين بعزمة
تأتى على هذا الخلاف وتحسم
فكلاهما لعزير عرشك مخلص
وكلاهما برضاك صب مغرم

والى جانب هذه المسائل الاجتماعية المتصلة بسياسة البلاد، التى أدت
إلى تخلف مصر عن ركب المدنية وكانت سببا فى أن يرمينا المتعصبون
من أهل الغرب بالتأخر والتخلف. ويهتمون الدين الإسلامى أنه بتعاليمه
سبب تخلف الشرقيين، وأن تعاليمه تحد من تقدمهم الحضارى، ومواكبة
المدنية والسير فى ركابها. نجد حافظ ابراهيم يقف فى وجه المتحاملين
على الإسلام، ويرد عليهم بالحجة والدليل القاطع موضحا ان سر تأخر فى
الشرق لا يعود إلى طبيعة الإسلام وإنما الذنب ذنب البعض الذين لم يفهموا
الإسلام على وجه الصحيح ويستند فى ذلك إلى آراء الشيخ محمد عبده
ويصفه بأنه حامى الإسلام والدين:

تباركت هذا الدين دين محمد
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى
أيترك فى الدنيا بغير حماة؟
ولانت قناة الدين للغمرات

وهكذا وجه حافظ كشاعر اجتماعى همه لمحاربة العيوب الاجتماعية من تقاليد واهية ، وعادات توارثها المصريون فاستقرت فى وعينا الاجتماعى، واستحال معظمها إلى بدع مضلة رسبت فى نفوس الشعب ورسخت. وكان حافظ ينهج فى محاربة هذه البدع من آراء الأستاذ الإمام فى الإصلاح الدينى والاجتماعى. فيهاجم هذه البدع التى كان لها أكبر الأثر فى تأخر الناس وتدهور أحوالهم فينتقد زيارة أضرحة الأولياء، ويبين أنهم لا ينفعون ولا يضررون، ويتهم من الساعين إليها، الذين يندرون النذور ويتوسلون إليها فى قضاء الحاجات:

وألف ألف ترزق الأموات	وأحيأونا لا يرزفون بدرهم
قامت على أحجارها الصلوات	من لى بحظ النائمين بحفرة
بحر النذور وتقرأ الآيات	يسعى الأنام لها ويجرى حولها
ووسيلة تقضى بها الحاجات	ويقال هذا القطب باب المصطفى

ويتعرض حافظ لأرباب الطرق فى الموالد ويكشف الستار عن الأساليب التى يتبعها هؤلاء فينسبون إلى الأولياء الكثير من الكذب والبهتان ويوقعون العامة بالأعيبهم فيقول:

لوقيعة وقطيعة وفراق	كم عالم مد العلوم حبالا
لمكيدة أو مستحل طلاق	وفقيه قوم ظل يرصد فقهه
كالبرج لكن فوق تل نفاق	يمشى وقد نصبت عليه عمامة
أن الذى يدعون خدن شقاق	يدعونه عند الشقاق وما دروا

وهكذا كان حافظ حربا على كل لون من ألوان الفساد الاجتماعى. فقد هاجم الرشوة والمرتشين مبينا بأن ذلك يؤدى بالبلاد إلى فساد الحال، وانعدام الأمانة واستشراء المحسوبيات والاستثناءات التى تكون دائما على حساب الوطن ومصالح الفقراء ومما يزيد الأمر خطورة يذكر حافظ أن هؤلاء المرتشين هم موظفو الدولة المتعلمون فيقول هل يصلح العلم عاريا من الأخلاق، كما يتعرض لذلك فى قصيدته بقوله:

والعلم إن لم تكتفه شمائل تعليه كان مطية الإخفاق
لا تحسبن العلم ينفع وحده ما لم يتوج ربه بخلاق

ويهاجم حافظ الأطباء الذين لا يراعون فى عملهم مبادئ الإنسانية وقوانين مهنتهم الشريفة التى تتطلب النزاهة والرحمة والشفقة والرافة بالمرضى من الفقراء والضعفاء:

وطبيب قوم قد أحل لطفه ما لا تحل شريعة الخلاق
قتل الأجنة فى البطون وتارة جمع الدوائق من دم مهراق
أعلى وأثمن من تجارب علمه يوم الفخار تجارب الحلاق

ويهاجم حافظ التواكل والتساهل بين الناس ويستمر مصورا رغبته فى إصلاح المجتمع الذى شاعت فيه روح التخازل ويقسمهم فريقين فريقا يطير مع الخيال ويحلم بتحقيق الآمال، وفريقا يرتجل النوادر ويرسل النكات على وفق مقتضى الحال:

هذا يطير مع الخيال وذاك يرتجل النوادر

ما هد عزم القادرين بمصر إلا قول باكر

وقد أولى حافظ هذا الداء الاجتماعى عنايته فبين أسبابه وأعراضه
موضحا أنه داء عضال ينهش الشعب ويهد من كيانه:
سرى داء التواكل فيه حتى تخطف رزقه ذاك الزحام
قد استعصى على الحكماء منا كما استعصى على الطب الجذام

ويشير حافظ إلى أثر التواكل والتخاذل فى مستوى الحياة وإلى تخلف
الأمة المصرية وعدم وصولها إلى المكان اللائق بها فيقول:
إن فينا لولا التخاذل أبطا لا إذا ما هم استقلوا اليراعا
وعقولا لولا الخمول تولا ها لفاضت غرابة وابتداعا
ودعاة للخير لو انصفوهم ملثوا الشرق عزة وامتناعا
كاشف الكهرياء لبتك تعنى باختراع يروض منا الطباعا
ألة تستحق التواكل فى الشر ق وتلقى عن الرياء القناعا

وهو إذ يندد بتخاذل المصريين وقعودهم عن استغلال موارد بلادهم
ينعى عليهم تسليم أمورهم إلى الأجانب فيقول:
أمة قد فت فى ساعدها بعضها الأهل وحب الغربا

وقوله فى قصيدة أخرى:
وما الموت الزوام إذا عقلنا لقد سعدت بغفلتنا فراحت
سوى الشركات حل لها الحرام بثروتنا وأولها (التبرام)

فيا ويل الفناة إذا احتواها بنو (التاميز) وانحسر اللثام

وحافظ في نقده طائفة الأغنياء الذين انتهت إليهم الثروات، يوضح أن كل همهم هو الحصول على الألقاب فيقول:
وهل في مصر مفخرة سوى الألقاب والرتب

ويحس حافظ بمرارة لهذه العيوب الاجتماعية التي التصقت بالمصريين ولم يحاولوا التخلص منها ولذلك نجده يطالب إيقاظهم من غفلتهم فيقول:
فهبوا من مراقدم فإن الوقت من ذهب

ويظل حافظ يرشد أبناء وطنه إلى الطريق الصحيح فيقول:
قم يا ابن (مصر) فأنت حر واستعد مجد الجدود ولا تعد لمراح
شمر وكافح في الحياة فهذه دنياك دار تناحر وكفاح
وخض الحياة وإن تلاطم موجها خوض البحار رياضة السباح
واجعل عينيك قبل خطوك رائدا لا تحسبن الغمر كالصخضاح

ويطالبهم بالنظر إلى الغرب وبترسومون خطاه فيقول:
وانظر إلى الغربي كيف سمت به بين الشعوب طبيعة الكداح
والله ما بلغت بنو الغرب المنى إلا بنيات هناك صحاح
ركبوا البحار وقد تجمد ماؤها والجو بين تتاوح الأرواح
والبر مصهور الحصى متأججا يرمى بنزاع الشوى لواح
يلقى فتسهم الزمان بهمة عجب ووجه في الخطوب وقاح

ويشوق أجواز الفقار مغامرا وعز الطريق لديه كالصحاح
لقد خالط حافظ جميع طبقات الأمة رغم ما بينها من تفاوت في الرزق
والتقافة والطباع . وترسبت في نفسه يتمه الباكر رواسب الماضي وما
يتمتع به الأغنياء وأصحاب المكانة الممتازة من الأسر الكبيرة المعروفة.
فينظر بعين التأمل إلى هذا التفاوت الطبقي، فالأغنياء الموسرون ينفقون
ويتمتعون، ولا يكادون يحسون بؤس البائسين ولا شكوى المحرومين، فما
هم فيه من غنى وثراء شغلهم عن إخوانهم الفقراء.
وبين هاتين الطبقتين المتفاوتتين طبقة وسطى كافحت من أجل حياة
أفضل وحاولت الوصول إلى منتصف الطريق.
وهذا التفاوت بين هذه الطبقات جعل التعاون بينها يكاد يكون نادرا.
فالزكاة التي جعلها الله في مال الغنى حقا معلوما للسائل والمحروم بخل بها
الأغنياء وضمنوا بها على الفقراء.
وبرزت مأساة هذا التناقض بين طبقات الأمة في نفس حافظ الشاعرة
التي ذاقَت من البؤس ألوانا خلال طفولته فكان يشفق على الطبقة الفقيرة
ويهاجم غلاء الأسعار في صراحة وقوة فيقول:
أيها المصلحون ضاق بنا العيش ولم تحسنوا عليه القياما
عزت السلعة الذليلة حتى بات مسح الحذاء خطبا جساما
وغدا القوت في يد الناس كاليا قوت حتى نوى الفقير الصياما
هو لا يتوقف عند هذا الهجوم بل يعاوده من خلال القصيدة بصورة
تثير النفوس وتبعث على السخط، مبينا أثر الحاجة وما تدفع إليه من
ارتكاب الآثام:

أيها المصلحون أصلحتم الأرز
أصلحوا أنفسا أضربها الفقر
وأغيثوا من الغلاء نفوسا
وأشكت تآكل الهبيد من الفقر
وهو مع ثورته يبين سخريته المرة من المسئولين فيخاطبهم قائلا:
قد شقينا ونحن كرمنا
الله بعصر يكرم الانعاما
ض وبتم عن النفوس نياما
وأحيا بموتها الأثاما
قد تمننت مع الغلاء الحماما
وكادت تذود عنه النعاما

ولما كان سوء الأحوال الاقتصادية يؤثر في الفقراء بصورة تزيد
حالتهم سوءا فقد طالب أصحاب القلوب الرحيمة بمد يد العون لتعين هؤلاء
وتسمح عنهم البأساء وقدم شكره إلى جماعة رعاية الأطفال لما تقوم به من
خدمات فأشاد بأعمال هذه الجماعة وأفضلها على الطفولة البريئة البائسة،
والأمومة التعيسة.

ونراه يمجد هذه الإنسانية العالية التي تدفع جماعة رعاية الأطفال إلى
التبرع بخدماتها لمن هو في حاجة إليها دون كلل ولا استعلاء.

وقد أنشد حافظ في هذا الحفل القصيدة التالية:

شبحا أرى أم ذاك طيف خيال لا ، بل فتاة بالعراء حياالى
أمت بمدرجة الخطوب فما لها راع هناك وما لها من والى
حسرى، تكاد تعد فحمة ليلها نارا بأنات ذكين طـوال
ما خطبها، عجبا، ولما خطبى بها؟ مالى أشاطرها الوجيعه مالى؟
دانيتها ولصوتها فى مسمى وقع النبال عطفن إثر نبال
وسألتها: من أنت؟ وهى كأنها رسم على طلال من الأطلال

فتململت جزعا وقالت: حامل
قد مات والدها، وماتت أمها
والى هنا حبس الحياء لسانها
فعلمت ما تخفى الفتاة وإنما
ووقفت أنظرها كأنى عابـد
ورأيت آيات الجمال تكفلت
لا شئ أفعل فى النفوس كقامة
أو عادة كانت تريك إذا بدت
قلت: انهضى، قالت: أينهض ميت
فحملت هيكل عظمها وكأنتى
وظفقت أنتب الخطا متيمما
أمشى وأحمل بانسين : فطارق
أبكيهما وكأتما أنا ثالث
وطرقت باب الدار لامتهيبيا
طرق المسافر أب من أسفاره
وإذا بأصوات تصيح : الا افتحوا
وإذا بأيد طاهرات عـودت
جاءت تسابق فى المبرة بعضها
فتناولت بالرفق ما أنا حامل
وإذا الطيب مشمر وإذا بها
جاعوا بأنواع الدواء وطوفوا

لم تدر طعم الغمض منذ ليالى
ومضى الحمام بعمها والخال
وجرى البكاء بدمعها الهطال
يحنو على أمثالها امثالى
فى هيكل برنوالى تمثال
بزوالهن فوادح الا تقال
هيفاء روعها الأسى بهزال
شمس النهار فأصبحت كالال
من قبره ويسير شن بالى
حملت حين حملت عود خلال
بالليل (دار رعاية الأطفال)
باب الحياة ومؤذن بزوال
لهما من الإشفاق والإعـوال
أحدا ولا مترقبا لسـوال
أو طرق رب الدار غير مبالى
دقات مرضى مدلجين عجال
صنع الجميل تطوعت فى الحال
بعضا لوجه الله لا للمال
كالأم تكلاً طفلها وتوالى
فوق الوسائد فى مكان عالى
بسرير ضيفتهم كبعض الآل

وجثا الطبيب يجس نبضا خافتا
لم يدرحين دنا ليلو قلبها
ودعتها وتركتها فى أهلها
وعجزت عن شكر الذين تجردوا
لم يخجلوها بالسؤال عن أسمها
خير الصنائع فى الأنام صنيعه
وإذا النوال أتى ولم يهرق له
من جاد من بعد السؤال فإنه
لله درهم فكم من بئسس
ترمى به الدنيا ، فمن جوع ، إلى
عين مسهدة وقلب واجف
لم يدر ناظره أعريانا يبرى
فكان ناكل جسمه فى ثوبه
يا برد ، فاحمل ، قد ظفرت بأعزل
يا عين سحى ، يا قبول تقطرى
لولاهم لقضى عليه شقاؤه
لولاهم كان الردى وقفا على
لله در الساهرين على الآلى
القائمين بخير ما جاءت به
أهل البيت وكهفه وحماته
لا تهملوا فى الصالحات فإنكم
ويروء مكن دائها القتال
دقات قلب أم دبيب نمال
وخرجت منشرا رضى البال
للباقيات وصالح الأعمال
تلك المروءة والشعور العالى
تتبو بحاملها عن الإذلال
ماء الوجوه فذاك خير نوال
- وهو الجواد - يعد فى البخال
جم الوجيعة سيئ الأحوال
عرى ، إلى سقم ، إلى إقلال
نفس مروءة وجيب خالى
أم كاسيا فى تلك الأسمال
خلف الخروق يطل من غربال
يا حر ، تلك فريسة المغتال
يا نفس رقى يا مروءة والى
وخلا المجال لخاطف الأجال
نفس الفقير تقيلة الأحمال
سهروا من الأوجاع والأوجال
مدنية الأديان والأجبال
وربيع أهل البؤس والإمحال
لا تجهلون عواقب الإهمال

إنى ارى فقراءكم فى حاجة - لو تعلمون - لقائل فعال
فتسابقوا الخيرات فى أمامكم ميدان سبق للجواد النبال
والمحسنون لهم على إحسانهم يوم الإثابة عشرة الأمثال
وجزاء رب المحسنين يجل عن عد وعن وزن وعن مكيال

ولما أقامت جماعة رعاية الأطفال حفلها بدار الأوبرا، ألقى حافظ
قصيدة دعا فيها إلى الإحسان والقصيدة التى ساقها تدور حول محسن ينجيه
إحسانه من الموت تحت القطار ومن الغرق مبينا إذا قام الأغنياء باخراج
الزكاة يقل عدد المحرومين واليوساء:

أنجاة من القطار، من الجسر، من النهر جل رب الأنام
وإذا صيحة علت من فتاة برزت من صفوف ذاك الزحام
وقفت موقف الخطيب ونادت تلك عقبى رعاية الأيتام
إن هذا الكريم قدصان عرضى وحمانى من عاديات السقام
عال طفلى وعالنى وحبانى بكساء وبدرة وطعام
كما بين أن هذا الرجل الذى أنجاه الله من الموت هو عضو هذه
الجماعة التى تساعد كل ملهوف بئس فقال:
وهو من معشر أغاثوا ذوى البؤس س وقاموا فى الله خير القيام

ولما كان حافظ يرى ان عليه واجبا نحو اليوساء، فلا بد أن يعلن
صرختهم فى المجتمع وأن يهز المتغافلين عن مساعدتهم، وأن يساند
الجمعيات التى تقوم على رعايتهم سواء كانوا أطفالا أم أمهات، صغارا أم

كباراً، ويحس في قرارة نفسه أن الخير الذي يجلبه لهؤلاء ، هو قيس الأمل
ونور الرجاء. ولا ينسى أيامه الأولى التي ذاق فيها آلام اليتيم فقال:
لم اقف موقفي لأنشد شعرا صب في قالب بديع النظام
إنما قمت فيه والنفس نشوى من كنوس الهموم والقلب دامي
ذقت طعم الأسى وكابدت عيشا دون شربي قذاه شرب الحمام
فتقلبت في الشقاء زمانا وتقلت في الخطوب الجسام
ومشى الهم ثاقبا في فوادي ومشى الحزن ناخرا في عظامي
فلهذا وقفت استعطف الننا س على البائسين في كل عام

لقد أحس حافظ مأساة الطفولة المشردة إحساسا عنيفا. وكانت كل
قصيدة يقولها تصف العلل وتبرز المأساة وتستدر أنبل ما في الأغنياء من
عواطف الإشفاق والرحمة.

وها هو يرى الجمعية الخيرية الإسلامية تمد يد العون إلى الأيتام الذين
تقوم على تربيتهم وتنشئتهم تنشئة صالحة ، فيهزه صنيع الجمعية، ويرى
ان عليه أن يشيد بها وبمعروفها، فيلقى قصيدة بين يدي السلطان حسين
كامل حاكم مصر في حفل أقامته الجمعية بدار الأوبرا السلطانية. وفي هذه
القصيدة يتحدث على لسان أحد صنائع الجمعية الذي كان يتيما بانسا فكفلته
الجمعية حتى اكتمل عقلا وعلما. ويكاد القارئ يستشف يتم حافظ. فالآلام
طفولته تطل من الأبيات التي تحدث بها اليتيم عن نفسه.

لم يبق من اهلى سوى ذكر تناساه الصحاب
أمشى يرئحنى الأسى والبؤس ترئح الشراب

فلکم ظللت علی طوی یومی وبت علی تباب
 والجوع فراس لـه ظفر یصول به ونباب
 فکأنه فی مهجتي نصل تغلغل للنباب
 وهذا الیتیم فیض الله له الجمعية الخيرية التي فتحت له فی ظلام حیاته
 بابا من أمل ونور، إذا علمته بمدارسها ورعته ببرها الذي شمله دون أن
 یحس من أحد منا ولا اذی
 وجمال صنع البرأ لا یستشف له حجاب
 والشعور الذي یعطف حافظا نحو الطفولة والدعوة للبر بها، كان دائما
 یتأجج فی نفسه فهو یمضی فی الحیاة محروما من الاستقرار العائلی ومن
 حنان الأم وعطف الزوجة وتعلق الأبناء. فكان یحس فی أقصى ضمیره
 بما یشعر به هؤلاء، ولذلك استمر يدعو للبر بهم . والإحسان إليهم،
 بمساعدة الجمعيات القائمة علی رعاية الطفولة:
 قد أجینا نداء کن وجئنا نسأل القادرین بعض النوال
 لو ملکنا غیر المقال لجدنا إن جهد المقل حسن المقال
 ونراه یشید فی قصیدته التي أنشدها لأول ما یو سنة ١٩٢٨ بجمعية
 أعضاؤها من السيدات ذوات القلوب الرقيقة:
 أی ذورات الحجال عشتن للبر ودمتن قدوة للرجال
 لم یكونوا لیدرکوا المجد لولا کن أو یسلکوا سبیل المعالی
 قمن علمننا المروءة والعطف علی البائسین والسؤال
 قمن عملننا الحنان علی الطفل شریدا فریسة المغتال

ويتوجه إلى الحاضرين يطالبهم بالتبرع وتأييد دعوة الإحسان لا إلى
هذه الجمعية وحدها ولكن إلى كل مشروع يحمل في طياته برا بالمساكين:
أيدوا كل مجمع قام للبرر بجاه يظلمه أو بمسال
وهنا يشمل حافظ بشكره رجال الإسعاف وما يؤدون من خدمات
لتخفيف ويلات الإنسانية:

ورجال الإسعاف أنبل لولا	شهوة الحرب من رجال القتال
يسهرون الدجى لتخفيف ويل	او بلاء مصوب أو نكال
كم جريح لولاهم مات نزفا	في يد الجهل أو في يد الإهمال
كم صريع من صدمة أو صريع	من سموم مخدر الأوصال
كم حريق قد أحجم الناس فيه	عن ضحايا تنن تحت التلال
يترامون في اللهب سراعاً	كترامى القطا لورد الزلال
لا لشيء سوى المروءة تحلو	طعمها في فم المرئى الموالى

وقصيدته هذه توضح اتساع دعوة البر عند المصريين وتقدم السوعى
الاجتماعى لديهم ، مما ساعد على تخفيف دموع المنكوبين ، والمسح بيد
الرحمة على آلام البائسين.

وحافظ لا يتوقف عن الدعوة لمساندة محافل البر في قصائده فهو يرى
فى نفسه حامى الطفولة والهاتف بدعوتها. ويفخر بأنه الشاعر الاجتماعى
الذى يقف مع هؤلاء فى مايو سنة ١٩١٩ يدعو إلى معاونة ملجأ الحرية
الذى يأوى الأيتام وينشئهم تنشئة صالحة . ويقول فى قصيدته إن أغنياء
مصر قد اتسعت فى نفوسهم عاطفة البر وأنهم اليوم غيرهم بالأمس.
لا تسئ ظنا بمثرينا فقد تاب عن آثامه واستغفرا

كان بالأمس وأقصى همه
فقد اليوم يواسى شعبه
إن أتى عارفه أن يظهر
وهو لا يرغب في أن يشكرا
نبيته عاطفة البر به
محنة عمت ومقدار جرى

ويرى أن هذا التراحم بين الطبقات لم يعد مظهرا من مظاهر الإيمان بالدين والعمل بمقتضاه، بل يراه إيمانا بمصر وحقها عليهم في أن يتعاهد أبناؤها على دفع الأذى، وإن يتواصوا فيما بينهم بالبر حتى يصير شعب مصر شعبا صالحا متأزرا، أبناؤه أعضاء جسد واحد إن شكوا منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وما أروع حافظا الذى بر بالطفولة والدعوة لعونها واستنقاذها من برائن الجهل والفقر والمرض، إذ رأى بعينه أن هناك طائفة أخرى من بنى وطنه تستحق أن يدعو لها ويعلن عن بؤسها وحاجتها إلى العناية والرعاية والإصلاح، وهى طائفة المكفوفين الذين سلبتهم الأقدار نعمة الإبصار، فإذا كانت جمعيات الطفل قد نالت قسطا وافرا من شعره وعطفه فإن جمعية إعانة المكفوفين هى الأخرى كانت ضمن اشعار حافظ فى حفلها الذى أقيم بالأوبرا فى ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٦ فألقى قصيدة استجدى بها أكف المحسنين لبناء مدرسة لهؤلاء المكفوفين الأحداث مؤكدا حقهم على إخوانهم الذين يملكون المال ونعمة البصر:

إن حق الضرير عند ذوى الإبر — صار حق مستوجب التقديس
لم يضره فقدان نور عينيه — ه إذا اعتاض عنهما بأنيس
أنسوا نفسه إذا أظلم العي — ش يعلم فالعلم أنس النفوس

وحافظ في معرض استنهاض الهمم لوح للمبتدئين بالفائدة التي قد يجنيها المجتمع من صنيعهم فرما أنجبت مدرسة العميان عبقريا يكون في مجتمعه أديبا مثل طه حسين عميد الأدب العربي أو غيره فيقول:
أكملوا نقصه يكن عبقريا مثل " طه " مبرزاً في الطروس
كم رأينا من أكمه لا يجارى وضرير يرجى ليوم عبوس
وبهذا يؤكد حافظ الحق المعلوم في مال كل غني لأخيه في الوطن الذي نكبته الحوادث وجار عليه الزمن. بل إنه ليذهب إلى أبعد من هذا فهو يؤكد معنى التكافل الاجتماعي بين أبناء الوطن مما يعد أحدث ما تتجه إليه التشريعات الاجتماعية في العصر الحديث.

وحافظ ابراهيم الذي اتسعت نفسه لآلام أمته، ورقت عاطفته الكبيرة لآلام الناس التي نكبته الحياة بدأت نفسه تتسع ، وعاطفته الإنسانية العالية تمتد لتتأثر بمصائب الإنسانية كلها. فهو يقول بلغته العربية شعرا يصور به آلام البشرية خارج الديار المصرية تصويرا رائعا فيه كل معاني التألم لآلام الآخرين والرتاء لهم واستدرار العطف عليهم ففي عام ١٩٠٢ وقع بركان في منطقة المارتنيك إحدى جزر الهند الغربية الفرنسية، فأشار حافظ إلى كثرة ضحاياه معبرا عن إحساسه بالآلم للفجعة التي تعرض لها البشر هناك

وفي عام ١٩٠٨ كان زلزال "مسينا" قد أصاب الإيطاليين بكثير من عنت الأقدار والخراب والدمار فتهز هذه الحوادث حافظ هذا عنيفا وتحرك في قلبه مشاعر الإنسانية وعواطف الرحمة والمواساة. فيبدأ في وصف الزلزال بالحديث عن غضب الطبيعة على الإنسان، وغضب البر والبحر

على البشر، ويصف مظاهر ثورة الطبيعة وخسفها بلدة مسينا وإغراقها.
وزرعها للموت في كل مكان ثم ينتقل إلى ناحية من الوصف تمس
العواطف الإنسانية مسا عنيفا. وتهز المشاعر هذا لا تعرف معه طعاما
للقرار والهدوء فيقول:

رب طفل قد ساخ في باطن الأرض ض ينادى : أمى ، أبى، أدركانى
وفتاة هيفاء تشوى على الجم ر تعاني من حرة ما تعاني
وأب ذاهل ، إلى النار يمشى مستمينا تمتد منه اليــــــدان
باحثا عن بناته وبنينه مسرع الخطو مستطير الجنان
تأكل النار منه لا هو تـاج من لظاها ولا اللظى عنه وإنى
وهكذا وصف حافظ ثورة الطبيعة وصفا مشخصا يبعث في نفس القارئ

من الصور والأخيلة ما يثير انفعالات الخوف والجزع والأشفاق:

بغت الأرض والجبال عليها وطغى البحر أيما طغيان
تلك تغلى حقا عليها فتتشق انشفاقا من كثرة الغليان
فتحجب الجبال رجما وقذفا بشواظ من مارج ودخان
وتسوق البحار ردا عليها جيش موج نائي الجناحين داني
فهنا الموت أسمر اللون جون وهنا الموت أحمر اللون قاني

كما يعبر حافظ عن الجانب التصويرى للحادث فيقول:

ألبسوك الدماء فوق الدماء وأرورك العداء بعد العداء
فلبست النجم من عهد قابيل ل وشاهدت مصرع الأبرياء
فلك العذر إن قسوت وإن خن ت وإن كنت مصدرا للشقاء
غلط الناس، ما طغى جبل النا ر بإرسال نفثه فى الهواء

أخرجوا صدر أمة فأراهم
بعض ما أضمرت من النوحاء
اسخطوها فصابرتهم زمانا
ثم أنحت عليهم بالجزاء
أيها الناس إن يكن ذاك سخط الـ
أرض، ماذا يكون سخط السماء؟
إن في علو مسرحا للمقاديـ
ر وفي الأرض مكمنا للقضاء
فأتقوا الأرض والسماء سواء
واتقوا النار في الثرى والفضاء
أما عن موقف حافظ من المرأة، فقد أدرك خطرها في الحياة المصرية،
خاصة بعد أن أشرق نور العلم عليها وفتح أمامها آفاقا من التطلع إلى
الرقى والتقدم، كلما حظيت بنصيب من الثقافة، وكلما تفتحت أمامها أبواب
الاتصال بالحياة.

وعندما دعا قاسم أمين إلى تحرير المرأة وألف لتوضيح دعوته كتابين
هما "تحرير المرأة" و "المرأة الجديدة" وكان لدعوته صدى مقاومة عنيفة
من الذين تذرعوا بحجة الدين في مهاجمته. وقف حافظ إلى جوار قاسم
أمين يسانده بشعره ويشد من أزره فنشر قصيدة عنوانها "إلى محرر المرأة"
يقول فيها:

أقاسم إن القوم مانت قلوبهم
ولم يفقوا في السفر ما أنت كاتبه
إلى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم
فمن ذا تتأديه ومن ذا تعاتبه
قلو أن شخصا قام يدعو رجالهم
لوضع نقاب لاستقامت رغائبه
ولو خطرت في مصر حواء أمنا
يلوح محياها لنا ونراقبـه
وفي يدها العذراء يسفر وجهها
تصافح منا من ترى وبخاطبه
وخلفهما موسى وعيسى وأحمد
وجيش من الأملاك ماجت كواكبه
وقالوا لنا رفع النقاب محال
لقلنا نعم حق ، ولكن نجانبه

ففى هذه الأبيات تبدو سخرية حافظ من المعارضين لتحرير المرأة فهو يعلل صدهم عن دعوة قاسم بأنهم لا يفهمون الصواب، ولا يسلكون سبيل الحق، ولا يتبعونه ويغلو حافظ فى سخريته منهم مبينا انهم لا يؤمنون بدعوة الحق التى يدعو إليها قاسم أمين. غير أن حافظ يبدو عليه الخوف والتردد فى مناصرة قضيتها، فنراه فى قصيدته التى قالها فى مدرسة البنات ببورسعيد فى ٢٩ مايو سنة ١٩١٠ يقف موقفا وسطا بين المغالين فى المطالبة بحرية المرأة، وبين الذين يتزمتون ويرون الحَجْرَ على حريتها وإهمال وجودها وكأنها متاع يفتنى . فيقول:

من لى بتربية النساء فإنها	فى الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا اعدتھا	أعدت شعبا طيب الأعراق
الأم روض إن تعده الحيا	بالرى أورك أيما إىراق
الأم أستاذ الأساتذة الألى	شغلت مآثرهم مدى الأفاق

ولكنه يحسب حسابا للرأى العام وموقفه من المرأة، ويحرص على أن يسترضيه ليبقى على إعجابه به باعتباره الشاعر الاجتماعى فيرتد عن الصراحة وعن مجابهة الرأى العام التى عرفناها منه عند بدء دعوة قاسم أمين، ويقول:

أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا	بين الرجال جلن فى الأسواق
يدرجن حيث أردن لا من وازع	يحذرن رقبتة ولا من واقسى
يفعلن أفعال الرجال لواهيأ	عن واجبات نواعس الأحداق
فى دورهن شئونهن كثررة	كشئون رب السيف والمزراق

وهكذا يمسك العصا من وسطها لا يؤيد التحرر السافر ولا التقييد الذى

عفا عليه الزمن فيقول:

كلا ولا أدعوكم ان تسرفوا فى الحجب والتضييق والإرهاق
ليست نساؤكم حُلِيًّا وجواهرًا خوف الضياع تصان فى الأحقاق
ليست نساؤكم أثاثًا يفتتنى فى الدور بين مخادع وطباق
تتشكل الأزمان فى أدوارها دولا وهن على الجمود بواقى
فحافظ يدعو إلى حال وسط بين الطرفين الممتازين حتى يرضى
أنصار التجديد والمحافظين على التقاليد معا فيقول:

فتوسطوا فى الحاليتين وانصفوا فالشر فى التقييد والإطلاق
ربوا البنات على الفضيلة إنها فى الموقفين لهن خير وثاق
وعليكم أن تتبين بناتكم نور الهدى وعلى الحياء الباقي

ولا يتعرض حافظ لحقوق المرأة المصرية فى المجتمع، ولا يدافع عن
قضيتها بعد وفاة قاسم أمين ، وإنما يكتفى بتسجيل نشاطها الاجتماعى
ومساهمتها فى جمعيات الطفولة وملاجئ الأيتام، أو مساهمتها فى الحركة
الوطنية سنة ١٩١٩ كمظاهرة السيدات المصريات وغيرها.

ويستمر حافظ فى قصائده يتتبع أخبار وطنه وأوضاعه السياسية
والاجتماعية وعندما فجعت مصر بوفاة زعيم الأمة سعد زغلول قام حافظ
بكتابة قصيدة رثاء أنشدها فى الحفل الذى أقيم لتأبين الفقيد فى ١٧ أكتوبر
سنة ١٩٢٧م فيقول:

إيه يا ليل هل شهدت المصابا كيف ينصب فى النفوس انصبابا؟

بلغ المشرقين قبل انبلاح الصبح
وانع للنيرات (سعدا) فد (سعد)
قديا ليل من سوادك ثوبا
انسج الحالكاك منك نقابا
قل لها: غاب كوكب الأرض في الأر
والبسينى عليه ثوب حداد
أين (سعد)؟ فذاك أول حفل
لم يعود جنوده يوم خطيب
عل أمرا قد عاقه، عل سقما
أى جنود الرئيس نادوا جهارا
إنها النكبة التى كنت أخشى
إنها اللفظة التى تتسق الأند
مات (سعد)، لا كنت يا (مات سعد)
كيف أقصدت كل حى على الأر
حسرة عند أنة عمن أه
قل لمن بات فى (فلسطين) بيكى
هذا عن قصائد حافظ وأفكاره عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية،
وينبئى الحديث عن حافظ كشاعر رائع النكتة يمتلك الفكاهة الحلوة والنوادر
المستلمحة ، وهو ما سنتعرض له فى الفصل التالى.

الفصل الرابع الفكاهة فى شعر حافظ إبراهيم

كان حافظ فى جلساته بين أصدقائه خفيف الظل، عذب الحديث، رائع النكتة حتى عرف بدعاباته ونكته ، وله فى ذلك المجال إنتاج كبير شعرا ونثرا حيث منحته الطبيعة قدرة فائقة على الفكاهة الحلوة والنوادر المستملحة، فبالرغم من حالة اليأس التى كان يعيشها ورغم الخوف والقلق الذى كان يحياه فقد كان يقضى معظم وقته فى المقاهى والمنتديات حيث يضحك ويضحك معه الناس من الأعماق، يسخر من كل شئ ، ويملا المكان بأساليب الفكاهة الأدبية التى تتميز بالبساطة وخفة الروح، وتحرك نفوس الناس ليضحكوا رغم ما هم فيه من معاناه.

وعلى الرغم من شعوره باليتم والحزن والاكتئاب، فقد كانت روحه تنسم بالحياة المستهينة بقيودها، وكان له ذوق بارع فى اختراع النكتة من كل ما يدور حوله فى جلساته فما أن يسمع حديثا أو يعرض أمامه شئ حتى يدرك موضع الفكاهة منه فيختطف النادرة من كل لفظ ويرتب الدعابة من أى معنى، فكان يضحك من اليأس ومن الشقاء ومن كل شئ، ويصوغ من ذلك صياغة تستخرج ضحك السامعين من أعماق قلوبهم، حيث يرسل النكتة فيستخرج منها ضحك الشيخ الوقور، والرجل الرزين ، والشاب الصغير ومن العجيب مع هذا أنه قلما نرى للنوادر والنكات فى شعره إلا القليل ومن نوادره ودعاباته ونكاته نذكر أنه كان ذات مرة فى زيارة للشيخ المراعى شيخ الأزهر، ورئيس هيئة العلماء فى داره بحلول

يتناقش معه في المسائل الدينية والأدبية وكثيرا ما كان حافظ يداعب الشيخ، وكان الشيخ يتقبل دعاباته ويطالبه بالمزيد منها، وحدث أن الشيخ المراغى اشترى خمسة من الديوك الرومى، ولم يكد الصباح يطلع عليها حتى ماتت فارسل حافظ إلى الشيخ رسالة تعزية قال فيها:

رحم الله خمسة من ديوك للمراغى عوجلت بالفناء
قلو أن الأستاذ خير فيها بين موت لها وبين فداء
لافتداها بخمسة من شيوخ من اساطين هيئة العلماء

ومما يحكى عن نواذر حافظ أن سعد زغلول كان على موعد مع الأديب المعروف أمين الرافعى فذهب إليه متأخرا، ولما سأله سعد عن سبب تأخره أخبره أنه حدث له مغص، فشرّب فى الصباح شربة من الملح الانجليزى، وأن الشربة لم تتحرك فى بطنه، وكان حافظ إبراهيم جالسا، فرد على الفور "هم الانجليز يا أمين بك لما يدخلوا حنة يطلعوا منها؟!"

وبهذا جمع حافظ بين النكتة من الانجليز والتهكم عليهم فى وقت واحد فإن كانت النكتة هنا مادة للدعابة والضحك، إلا أنها أكدت حقيقة واقعية، ساقها حافظ ببديهة الحاضرة، كى تصف الانجليز، وبتهمك عليهم ، ثم تهزأ من وجودهم، وقد جاءت فى تلقائية مباشرة، أنبتقت من نفس شاعر النيل، حتى صارت مثلا، تتلقفه العامة ويتردد بين الناس.

ومما يروى أن الدكتور محجوب ثابت قد رأى حلما فقصه على سعد زغلول، فأخبره بأن حافظ هو الذى يمكنه تفسيره، خاصة وأنه كان مشهورا بتفسير الأحلام ويعتقد فى الرؤى وأثرها فى حياة الانسان ولما قصه على حافظ بقوله : رأيتى راكبا بغلة عليها سرج موشى بالذهب،

سائرة بى فى حقول خضراء، بينما كان كثير من الحمير تتبعنى، فقال له حافظ (البغلة دى كرسيك فى مجلس النواب، فسأله محجوب: والحمير اللى كانت ورايه ؟ فقال حافظ دول اللى راح ينتخبوك.

ويحكى أن حافظ كان دائم التندر والسخرية على صديقه إمام العبد وكانت له معه مفاكهات كثيرة تؤكد قوة العلاقة بينهما، وذات مرة كان إمام العبد يملئ شيئاً، وحدث أن سقطت نقطة حبر على الورق فقال له حافظ (الحق يا إمام نشف عرقك) ومن المعروف ان اماما كان أسود الوجه، وذات مرة لبس أمام رباطا للرقية أسود فلما رآه حافظ قال له (زرر القميص يا إمام).

ويتندر حافظ بصديقه إمام وكان يسكن فى بيت صغير ضيق "بأن غير الدرك يشكو كل ليلة من أنه حين يمر بمنزله يتوقف عن المرور وينادى يا إمام رجلك طالعة من الشباك يا أخى مش ضرورى تنام ممدد" وفى أحد الأيام نزلا إلى البحر معاً، وعندما خرجا نظر إلى إمام وكان شديد السواد من شدة الشمس، وقال "أنت الان سودانى مملح" ثم رأى سيدة جميلة تسير على الشاطئ فالتفت إلى إمام وأخذ يقبله ، فانزعج إمام وسأله، ما هذا يا حافظ؟ فقال : اقبل الأرض بين يديها".

وذات مرة دخل عليه صديقه " الشيخ عبد العزيز البشرى" وباده قائلاً: " لقد رأيتك من بعيد فتصورتك واحدة ست فرد عليه حافظ والله يظهر أن نظرنا ضعف. أنا كمان شفتك وانت جاي افكرتك راجل.

وذات مرة كان البشرى وحافظ مدعويين إلى احدى الرحلات ودخل البشرى على حافظ فى غرفة النوم ، وطلب إليه ان يرتدى ملابسه فقال له

حافظ " أنا لسه مغسلتس وشى فرد عليه البشرى وشك مش عاوز غسيل
نفضه كفاية!"

وحدث ذات مرة أن حافظ حضر حفلة موسيقية وكان العزف رديئاً
فطلب من قائد الفرقة ان يسمعهم لحنا آخر، فأجاب المايسترو بان اللحن
الذى يعنيه سبق لهم عزفه منذ دقائق، فصاح حافظ على الفور: يا سلام،
على كده يبقى انبسطنا. وخلال الحملة الانجليزية بقيادة كتشنر على
السودان ألحق حافظ بهذه الحملة رغم أنفه، وحدث ان عاد ذات مرة إلى
المعسكر متأخراً، فصاح فيه الحارس الانجليزى الذى كان يقف عند بوابة
المعسكر. مين هناك، وكرر النداء أكثر من مرة وارتبك حافظ ولم يدر
ماذا يفعل ثم صاح مجيباً أنا انجليزى يا جورج.

ومما يروى ان حافظ كان يكره شاعرا من شعراء عصره كراهية
شديدة، وكان هذا الشاعر يتولى منصبا مهما يحتاج حافظ إليه، لذلك كان
يبدى له الود وان كان يبغضه فى حقيقة نفسه. سأله هذا الشاعر ذات مرة
عن رأيه فى أعظم شاعر فأجاب حافظ إنه الممتبى فسأله : واعظم ما قاله،
فأجاب:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بد
ومما يذكر من طرائف حافظ أنه رأى رجلا كبير الكرش، فقال له
مداعبا: ما أراك إلا ممن يطلبون المساواة بين المرأة والرجل، فأجابه:
نعم، فقال حافظ: ظاهر لقد حملت عنها حملها" ، "ومر يوما على رجل يبيع
مراوح، فسأله عن ثمنها، فقدم له مروحة، وقال له: هذه بقرش واحد، ثم
قدم له أخرى مثلها وقال له: وتلك بقرشين، ونظر حافظ فى المروحتين

وقلبهما، ولم يجد فرقا بينهما، فقال له: هذه تأتي بهواء بحرى والأخرى تأتي بهواء قبلى!"، ومما يذكر أنه دعا جماعة من أصحابه إلى طعام، وجاعوا معهم بصديق لهم، لم يكن يعرفه ولاحظ حافظ أنه يكثر من الأكل، فقال له: ترى ماذا كان يكون أمرك لو كنت من المدعويين، هلا نكرت أنك مدعو من باطن مدعو، ثم قال له: يا أخى إنك تشبه الخزانة التى بها درج سرى!" و "دعى حافظ مع جماعة على طعام، وكان على المائدة ديك رومى صغير لم يعجب حافظ، فقال للمضيف: ما أظن هذا الديك إلا دجاجة نفختها بمنفاخ دراجة، ثم قدمته لنا على أنه ديك رومى".

وكتب حافظ ذات مرة إلى جار له لم يدعه لحفل زفافه فقال:

وأحمد كيف تتسانى وبينى	وبينك يا أخى صلة الجوار
وبيتى فارغ لا شئ فيه	سواى واننى فى البيت عارى
وما لى جزمة سوداء حتى	أوافيكم على قرب المزار
فإن لم تبعثن إلى حالاً	بمائدة على متن البخار
تغطيها من الحلوى صنوف	ومن حمل تتبل بالبهار
فإنى شاعر يخشى لسانى	وسوف أريك عاقبة احتقارى

وعلى الرغم من خفة دم حافظ ونكته فقد كان فى قراره نفسه حزينا على نفسه وحزينا على وطنه فقد أجاد الرثاء فى كل منها، فبعد أن تعرض للمرض وعاش وحيدا كتب قائلا:

مرضنا فما عادنا عاند	ولا قيل أين الفتى الألعى
ولا هس طرس إلى كاتب	ولا خف لفظ على مسمعى

سكتنا فعز علينا السكوت وهان الكلام على المدعى
وإلى جانب ذلك فقد أعلن حافظ إبراهيم عن تيرمه وحزنه الدفين
وسخطه من الحياة التي يعيشها فقال:
عزت السلعة الذليلة حتى بات مسح الحذاء خطبا جساما
وإذا القوت فى يد الناس كاليا قوت حتى نوى الفقير الصياما
ويخال الرغيف فى البعد بدرا ويظن للحموم صيدا حراما
ثم يندب حافظ حظ أبناء وطنه وما هم فيه من ذل وحرمان بينما يعيش
الأجنبى الذى يفد إلى مصر وكأنه المتحكم فى مصائر الأمور فيقول:
بنو مصر فى حمى النيل صرعى يرقبون القضاء عاما فعاما
أيها النيل كيف نمسى عطاشا فى بلاد رويت فيها الأناما
يرد الواغل الغريب فى روى وبنوك الكرام تشكو الأواما
قد شقيننا ونحن كرمنا اللـ به بعصر يكرم الانعاما
وهكذا يتضح من هذه المواقف التى تتسم بالحيوية والمرح ان حافظ
كان يتندر فى دعابة على ما وصلت إليه الأحوال فكان حزين الروح
مكتئب النفس حيناً، مرحاً يسخر بالحياة ويستهين بها فى دعابة فكهة فى
أحيان أخرى.

خاتمة

لقد ذاق شاعرنا حافظ ابراهيم من العذاب والفقر ألوانا وصدمة الحياة صدمات عنيفة قتلت طموحه، ومن يستعرض شعره يجد في كل قصيدة منه ألما وبؤسا وآسا وشكوى من الدنيا ومن فيها جعلته يحس بصلة وثيقة بينه وبين البؤساء، وربما ذلك هو الذى دفعه إلى ترجمة البؤساء لفكتور هوجو لقد نشأ حافظ فقيرا وظل يشكو الفقر معظم حياته، كما ظل يسخط على حظه الذى يلازمه ومع ذلك فقد كان الأمل ينبعث دائما من خلال يأسه وروحه المضطربة. كما أن موهبته جعلته يهمل كل شئ فى سبيلها، وجعلت من فقره وسيلة لإذكاء نورها، ففى مدرسة اليتيم والفقير التى خرّجت لمصر الأفاضل والعباقرة عرفت نفس حافظ معنى الحياة والألم، فأعد نفسه للشعر، وكان له غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى، وبدأ يسلك السبل التى أعدها القدر له حيث انطبعت حياة الشعب المصرى فى نفسه، وأوحت إليه كما أوحى له حب مصر كل شعره، فأخذ يفتح بشعره كافة الميادين ويحطم ما حوله من الأوهام ويستنهض الهمم، فكان صوتا قويا لمصر ينشد أغانى الحرية ويترنم باسم الدستور وتصوير عواطف المصريين والأمم وأمالهم، وفى نفس الوقت يدفع نفوسهم إلى الفكاهة والطرب بشعره والحماسة له. فكان حافظ ابراهيم رغم بؤسه ظريفا يضحك جالس من الأعماق ويسخر من كل شئ حتى من وجوده، وإلى جانب ذلك كان سريع البديهة، وسطا بين شعراء الحرية القومية، وشعراء الحرية الشخصية فليس له فى شعراء عصره نظير فى الجمع بين

الخصلتين والظهور بحالة قومه وحالة نفسه معا فهو شاعر الحياة المصرية بكافة أحوالها، فتحدث عن الأزمات التي مرت بها مصر، كما تحدث عن حياته الشخصية في هزله وخلجات نفسه بأسلوب يتميز بقوة البلاغة وطلاوة الأسلوب وقد أنصفه أمير الشعراء أحمد شوقي بقوله:
وغدا سيذكرك الزمان ولم يزل للدهر انصاف وحسن جزاء

لقد كان حافظ صادقا في وطنيته صدقا جعله يعبر عن كل ما يدور في نفسه خاصة وأنه كان من طبقات الشعب، ومن صميم هذه الطبقات التي سكبت في روحه روح مصر الخالدة، وجعله القدر قيثارته توحى إليها ربات الشعر، فإذا شعب مصر يتغنى بقصائده، وإذا أرض مصر التي ترعرع عليها تبارك له هذا الشعر الذي مهد النفوس لاستنهاض الهمم فقامت ثورة ١٩١٩، وأدى رسالته في توضيح ما تتبص به القلوب وتهوى إليه الأفئدة من أمل وألم، وخوف ورجاء وتوثب للعزة وخشية الانكسار. فتحية إلى الرجل الذي أبدع الشعر السياسي في اللغة العربية، وكان شاعر مصر الاجتماعى بلا منازع.

وهكذا سائر حافظ ابراهيم النهضة المصرية منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى وفاته في ٢١ يوليو ١٩٣٢ فكان له فيها آثار تشهد بما له من فضل في النهضة الوطنية والأدبية التي اجتاحت مصر خلال هذه الفترة وتدل على أنه كان الأديب المناضل، الفذ والشاعر البليغ الذي جرد من قلمه سيفاً شيرته في وجه أعداء المصريين، ونظم من شعره «هاما طانما كانت قاسية في صدور المحتلين والغاصبين، لقد كانت حياة حنظ ابراهيم

ملئنة بالمشاعر والأحداث التي جعلت منه شاعر البؤس والبؤساء، وشاعر الثورة على الأخلاق وشاعر الانسانية المعذبة، وشاعر الوطنية، وشاعر الاجتماع والشاعر بالأم وأحلام المصريين، وإلى جانب ذلك فقد كانت نفس حافظ في جوهرها نفسا مصرية تجد بساطتها في كل أثر من أثار المصريين، فلم لا يحبها الناس ويرون فيها أنفسهم، ولم لا يعجب بها الناس وإنما ينظرون فيها إلى صورهم تعكسها مرآة صافية نقيّة ومضيئة لا يشوبها صدا، ولا يغشاها غبار، لقد خالط حافظ الناس جميعا فأصبح هو الناس جميعا فقراء وأغنياء، تراه في كل بيئة وفي كل مكان تراه في حديقة الأزبكية يقرض الشعر، وتراه في الشوارع يمشى أصدقاءه ضاحكا مما يحزن ومما يسر، وتراه بانسا ليرى بؤس الناس من حوله . رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

أهم مصادر الدراسة

- حافظ إبراهيم:
- ١- ديوان حافظ إبراهيم ، القاهرة، ١٩٣٧.
- ٢- ليالى سطيح ، القاهرة، ١٩٠٦
- سمير سرحان ومحمد عنانى: أروع ما كتب شاعر النيل حافظ إبراهيم، القاهرة، ١٩٩٥م.
- عباس العقاد: شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى، القاهرة، ١٩٣٧.
- عبد الرحمن الرافعى:
- ١- ثورة ١٩١٩ (تاريخ مصر القومى ١٩١٤-١٩٢١) القاهرة، ١٩٨٧.
- ٢- شعراء الوطنية فى مصر، القاهرة ١٩٦٦.
- عبد العاطى كيوان : الفكاهة والسخرية عند حافظ إبراهيم، القاهرة، ١٩٩٧.
- كامل الشناوى: زعماء وفنانون وأدباء، القاهرة، ١٩٧٢.
- محمد حسين هيكل: الأدب والحياة المصرية، القاهرة، ١٩٩٢.
- محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ج١، القاهرة، ١٣٥٠هـ.
- محمد كامل جمعه : حافظ إبراهيم ، القاهرة، ١٩٥٨.
- محمود السعدنى : الظرفاء، القاهرة، ١٩٩٢.

